خصائص التربية النبوية

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسات
إسلامية
6

خصائص التربية النبوية

الأستاذ الدكتور محمد الزحيلي

وكيل كلية الشريعة للشؤون العلمية
بجامعة دمشق

دار المكتبي

الطبعة الأولى
1418 هـ - 1998 م

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أوالنسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق

دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص. ب. ٣١٤٢٦ هاتف ٢٢٤٨٤٣٣ فاكس ٢٢٤٨٤٣٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله حق حمده ، والصلاة والسلام على رسول الله ، المبعوث رحمة للعالمين ، ورضوان الله تعالى على الصحابة والتابعين ، ومن سلك نهجهم إلى يوم الدين ، وبعد :

النبوة والتربية :

فإن الله تعالى اصطفى من البشر رسلاً لهداية الناس وإرشادهم ، لتحقيق خلافة الله في أرضه ولتظهر الإنسانية بأحلى صورها ، وأسمى معانيها ، وأقدس قيمها ، وتتربى الأمم على المثل العليا ، والمبادىء القويمة ، وقام الأنبياء والرسل بتبليغ الدعوة ، وحمل الرسالة ، فكانوا يعلمون الناس الخير ، ويأمرونهم بالمعروف ، وينهونهم عن المنكر ، ويذكّرونهم بفطرتهم ، وحق الله عليهم ،

ويحذّرونهم من الشر وأعوانه ، وبذلك جمع الرسل بين حمل الرسالة ، وأداء الأمانة ، وتبليغ الدعوة ، وبين وظيفة التربية والتعليم .

وإذا كانت الوظيفة الأساسية للأنبياء والرسل هي الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله ، وإنقاذالبشرية من وهاد الشرك ، وفساد الإلحاد ، فإن هذا الأمر لا ينفك عن الوظيفة الكبرى الثانية ، وهي تعليم الأمم ، وتربية الشعوب ، وتهذيب الأفراد ، وتثقيف الجماعات ، وكشف الحقائق الثابتة ، وتلقين الثقافة الصحيحة ، والمبادىء القويمة ، والمعلومات الكاملة عن الخالق والحياة والكون ، وعن الإنسان نفسه ، ليعرّفه بذاته أولاً ، ويكشف له الطريق ثانياً ، ثم ليأخذ بيده إلى الرشاد في الدنيا ثالثاً ، ويحقق له السعادة الأبدية في الآخرة رابعاً .

فالأنبياء والرسل دعاة ومعلمون ، وهداة ومربون ، وهم مشاعل النور والهداية للبشرية قديماً وحديثاً .

وفوق كل ذلك فإن الأنبياء والرسل يقومون بتطبيق المبادىء والقيم ، والأخلاق والتعاليم التي يدعون إليها ، لتأخذ هذه الأمور النظرية والمعنوية طريقها السديد إلى

التطبيق الصحيح ، فيكون الأنبياء والرسل نماذج خيرة لتمثُّل المبادىء الدينية والأخلاق الإنسانية ، لدعوة الناس إليها أولاً ، وإلى بيان التنفيذ القويم لها ثانياً ، فيكونوا قدوة خيرة ، ويتم الامتثال العملي على أشده قوة وحماساً ، وبذلك يعتبر الأنبياء والرسل المُثُل الكاملة للإنسانية ، والصورة المتجسدة للخلافة الإلهية ، والترجمة العملية للشرائع والرسالات ، والأسوة الحسنة للناس ، والأنموذج الصادق للاقتداء .

الرسول العربي المربي :

ومن هؤلاء الأنبياء والرسل : محمد بن عبد الله ، خاتم النبيين ، ورسول الله إلى العالمين ، الذي أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، وأنزل عليه الكتاب ليخرجَ الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، إلى صراط العزيز الحميد ، وقال الله فيه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] .

وقام رسول الله ﷺ بواجبه خير قيام ، وأدى الأمانة ،

ونصح الأمة ، وبقيت رسالته ـ والحمد لله ، وبفضل الله ـ خالدة ظاهرة ، وشريعة صحيحة سليمة ، لا يأتيها الباطل من بين يديها ، ولا من خلفها ، وسيرته كاملة ناصعة ، ومنهجه في الدعوة والحياة ، والتربية والتعليم مصوناً محفوظاً ، وكان رسول الله ﷺ المثل الكامل للإنسان الذي يحبه الله ويرضاه ، ويريده ويدعو إليه ، كما أنه المثل الخالد في التربية والتعليم والدعوة وغيرها .

وقد سلك رسول الله ﷺ أقوم السبل ، واستخدم أنجع الوسائل ، واختار أقصر الطرق في الدعوة إلى الإسلام ، وتعليم الصحابة ، وتربية الأمة ، فتحققت على يديه الثمرات العظيمة في أوسع مدى ، وأعمق الأثر ، وأسمى النتائج .

منهج الرسول في التربية :

وإن المتأمل في أحاديث الرسول ﷺ والمتتبع لسيرته الطاهرة ، والمفكر في بناء الأمة التي شيَّدها ، وفي تربية الجيل الذي عاصره ، وإن الناظر في البيان النبوي ، والفصاحة المحمدية والبلاغة الأدبية وغيرها ، ليدرك إدراكاً جازماً أن للرسول ﷺ منهجاً في التربية كان يسير عليه في

الدعوة والوعظ ، والمعاملة والمعاشرة ، وفي سائر شؤون الحياة .

وبعد الدراسة والبحث نبادر القارىء بالنتيجة ، ونسرع إلى القول : أن الرسول ﷺ هو المعلم المثالي ، والمربي الألمعي ، بل هو أعظم معلم في تاريخ البشرية بدليل تاريخي مادي محسوس وملموس ، وهو أنه ربى أمة تربية رشيدة سامية ، ونقلها من الضلال إلى الرشد ، ومن الكفر إلى الإيمان ، ومن الظلام إلى النور ، ومن الجهل إلى العلم ، ونقلها من مؤخرة الأمم والشعوب إلى قيادة العالم ، وريادة الحضارة ، وتخرَّج من مدرسته جيل الصحابة الذي لم يعرف التاريخ له مثيلاً ، وكان المتخرجون مشاعل هداية ، ودعاة رسالة ، وحملة أمانة ، وبناة مدنية ، ومؤسسي حضارة ، فتمثلوا الإسلام قولاً وعملاً ، عقيدة وسلوكاً ، وصهروا المبادىء في بوتقة الحياة ، وجسَّدوا المُثُل إلى واقع ، وترجموا الشِّيم والأخلاق إلى أعمال ، فكانوا ـ بحق ـ أكمل رجال التاريخ أفراداً ومجتمعاً في ثبات الإيمان ، وصفاء العقيدة ، وسمو الروح ، وعلو الهمة ، واحتمال المشاق ، والتضحية في سبيل الله ، وتحمل العذاب في طريق الدعوة ،

ولم يكتفوا بذلك ، بل حملوا الدعوة والرسالة إلى غيرهم ، ونشروها في الأرجاء ، ومارسوا وظيفة الأنبياء والرسل في الهداية والتربية والتعليم .

وإن المنهج النبوي في التربية غير خفي في السنة الشريفة والسيرة العطرة ، ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا : إن كل حديث قولي أو فعلي أو تقريري لم يصدر عن رسول الله ﷺ إلا وهو مبني على مبدأ تربوي ، وإن المتفحص في الحديث الواحد يجد عدة مبادىء تربوية في آن واحد ، ويستخرج مجموعة من الأسس والقواعد التي كان رسول الله ﷺ يقصدها في ذلك الحديث .

ومع التسليم الكامل لعظمة المنهج التربوي الذي سار عليه الرسول ﷺ والآثار العظيمة التي حققها في التربية والتعليم ، والوضوح الكافي في وسائله وغاياته ، فلابد من الاعتراف أن هذا المنهج النبوي في التربية ـ بأسسه وأصوله ومبادئه ـ لايزال مفرقاً في كتب السنة النبوية والسيرة الشريفة ، وهو بعيد عن المصطلحات التربوية الحديثة ، مما حجب علماء التربية المعاصرين عن الاستفادة منه ، والاستقاء من معينه .

وإن الكتابة عن منهج التربية في الإسلام عامة ، ومنهج الرسول ﷺ خاصة في الدعوة والتربية والتعليم ، قليلة جداً إذا

قورنت مع ما كتب عن الرسالة والرسول في مختلف الجوانب ، وأن الدراسات التربوية في الإسلام مع أهميتها وخطرها ، لم تلق العناية المتناسبة معها ، وهذا يكشف القصور والتقصير من المسلمين ، ويهيب بالعلماء بوجوب العناية في هذا الجانب ، والدراسة فيه ، وكشف مبتكراته وأغواره ، وصياغة مبادئه وطرقه .

ويقتصر بحثنا الآن على طرف منه ، وهو « خصائص التربية النبوية » التي تنير الطريق لمن يقصد معرفة التربية النبوية ، ويتجه إلى الاستفادة منها ، ويريد الطمأنينة القلبية على الوسائل التربوية ، والأهداف السامية في بناء الفرد والأمة والمجتمع ، ويوفق بين عقيدته الدينية ، وحياته العلمية ، وبيئته المتطورة ، ومستقبله المنشود ، ولكي تتوفر الجهود المخلصة في استخلاص المنهج التربوي الواضح والشامل والعام للمسلمين على الصعيد الفردي والجماعي ، والشخصي والرسمي ، والعام والخاص ، للسير عليه في البيت والأسرة ، والمجتمع والمدرسة ، والتوجيه والإعلام ، وليكون ذلك منهجاً للدعوة إلى الدين والإسلام ، وطريقاً لتحقيق الرفاه والسعادة ، والتقدم وبناء الحضارة ، والفوز برضوان الله في الدنيا والآخرة .

خطة البحث :

والخصائص هي الصفات التي يتميز بها الشيء على غيره ، وهي السمات التي يعرف بها ، ويقوم كيانه عليها ، وتحدد معالمه ، ويستقل بها ذاتاً وعرضاً ، وهذه الصفات والسمات تنبع من الأسس والأصول ، وتمتد إلى الفروع ، وتترك بصماتها وآثارها في كل جانب .

والخصائص المقصودة في التربية النبوية هي الصفات والسمات التي تنفرد بها على بقية النظريات التربوية ، والمناهج التعليمية ، وقد تشترك هذه الخصائص مع تربيات أخرى ، ولكن تبقى الأصالة والأسس ، أو الوسائل والأساليب ، أو الانسجام والتوافق ، أو الأثر والنتيجة ، تنفرد وتستقل عن غيرها .

وقد قسمت خصائص التربية النبوية إلى قسمين :

الأول : الخصائص الأساسية للتربية النبوية ، وتشمل الاصطفاء والاختيار للرسول المعلم والتوجيه القرآني له .

الثاني : الخصائص العامة للتربية النبوية ، وهي كثيرة ، اقتصرنا على أهمها وهي :

النزعة الإنسانية ، والشمول ، والتوازن ، والسمو في الأهداف ، والتطبيق العملي ، والروح الأخلاقية .

القسم الأول

الخصائص الأساسية للتربية النبوية

وهي الخصائص الفريدة التي تبنى عليها غيرها ، ويتفرع عنها بقية الخصائص ، وهي :

١ـ الاصطفاء والاختيار :

تعتمد التربية النبوية على ثلاثة أركان ، وهي : المعلم والمنهاج والكتاب ، ويحتل المعلم أهم الأركان ، ويعتبر حجر الزاوية في التربية والتعليم والدعوة ، وهو أهم وسيلة تعليمية في تحقيق الأهداف والمبادىء التي يؤمن بها ، ويسعى للوصول إليها ، وتعلق عليه الآمال في التوعية والتوجيه والتقويم ، ويتوقف على كفاءته إعداد الجيل ، وتربية الأمة ، علمياً وسلوكياً ، كما يتوقف عليه إمكانية تطبيق المبادىء وتبليغ المعلومات التي تنشدها العقيدة ، أو يدعو إليها الدين الحنيف ، أو يحددها المنهاج .

والمعلم هو المصدر الإشعاعي للعلم ، والأداة الفعالة لاستعمال الوسائل التعليمية والطرق التربوية .

وتظهر أهمية المعلم في شخصيته وسلوكه وأثره ، وتتضافر عدة عوامل على نجاحه وتفوقه ، وبعض هذه العوامل فطري كالذكاء والاستعداد العقلي ، وحضور البديهة ، وسرعة الخاطر ، وحسن النطق ، وقوة الجسم ، وسماحة النفس ، وتوفر المواهب ، وبعضها مكتسب يخضع للتغيير ، ويقبل الزيادة ، وينمو بالممارسة كالنطق بالفصحى ، وسعة الثقافة ، والاطلاع المتنوع ، وحسن المعاملة ، والتسلح بالأخلاق ، وجودة العمل ، وإتقان البحث ، والإعداد الذي حققه ، والشهادة التي حازها .

وهذه الصفات المطلوبة تتوفر بالمعلم المتفوق عادة ، سواء ما كان منها فطرياً أو مكتسباً ، مع تفاوت النسبة من معلم إلى آخر ، وقد توفرت بأجمعها بالمعلم الأول ، وهو الرسول العربي المربي .

لكن رسول الله ﷺ امتاز على بقية المعلمين بصفة ذاتية ، وخصائص شخصية تتعلق بفطرته وتكوينه ، وتتصل بالمعهد الذي تخرج منه ، والجامعة التي درس بها ، والشهادة التي

حملها ، مما أكسبته ميزة فريدة تحتل المكان الأول في خصائص التربية النبوية ، وهي صفة الاصطفاء الرباني والاختيار الإلهي .

فالرسول ﷺ من النخبة الخيِّرة التي اصطفاها الله سبحانه وتعالى من سائر خلقه ، فاصطفاهم من البشر جميعاً ، ثم اصطفاهم من شعبهم وقبيلتهم وعشيرتهم وأسرتهم ، فكانوا أفضل الناس ، في الفطرة والتكوين ، وهم الأنبياء والمرسلون ، وكانت عوامل النجاح الفطرية على أحسنها ، وبأعلى درجاتها ، من الذكاء والعقل والمواهب وغيرها ، وهذا ما بينه القرآن الكريم في عدة آيات ، فقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج : ٧٥] ، وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر : ٣٢] ، وقال عز وجل : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣٣ـ٣٤] ، وقال عن سيدنا إبراهيم : ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [البقرة : ١٣٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ

ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص : ٤٥ـ٤٧] ، أي صفَّاهم الله عن شوائب النفوس ، وكدر الحظوظ ، وجعلهم خالصين لله ، وإنهم المختارون من أبناء جنسهم ، المنزهون عن النقص والشرور .

وهذا ما بيَّنه رسول الله ﷺ عن نفسه ، مُمْتناً بفضل الله تعالى ، فيما رواه مسلم والترمذي وأحمد ، عن واثلة بن الأسقع ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ الله اصطفى كنانةَ من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » ، وروى الترمذي عن العباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قام على المنبر فقال : « مَنْ أنا ؟ فقالوا : أنتَ رسول الله عليك السلام ، قال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إنَّ الله خلقَ الخلق فجعلني في خيرهم ، ثم جعلهم فرقتين ، فجعلني في خيرهم فرقةً ، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلةً ، ثم جعلهم بيوتاً ، فجعلني في خيرهم بيتاً ، وخيرِهم نَفْساً » ، وفي رواية : « فأنا خيارٌ من خيارٍ من خيار »[1] ، وهنالك أحاديث كثيرة في

---

(١) فيض القدير ٢/ ٢١٠ ، الفتح الكبير ١/ ٣٢٣ .

هذا المعنى ، والاصطفاء هو الاختيار ، والصفوة من كل شيء خالصه وخياره ، وقوله : « فأنا خيرُهم نفساً » أي روحاً وذاتاً ، إذ جعلني الله نبياً ورسولاً وخاتماً للرسل ، وخيرُهم بيتاً ، أي أصلاً إذ جئت من طيب إلى طيب .

وهذا اصطفاء رباني ، واختيار من قبل رب العالمين ، لأحد خلقه ، ليكون واسطة بينه وبينهم في الوحي ، وليكون رسولاً من الخالق ، إلى المخلوقين ، بل ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين ، فهومن خير خلق الله أجمعين .

ولم يقف الأمر عند الاصطفاء ، بل شملت الرعاية الإلهية أن يربيه تربية خاصة ، ويُعِدُّه إعداداً قويماً ، ويؤدبه تأديباً رفيعاً ، ويؤهله تأهيلاً فريداً ، وهو القائل : « أدَّبَني ربِّي فأحسنَ تأديبي »[1] ، وبيَّن القرآن الكريم هذا التأهيل والرعاية ، فقال عز وجل : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه : ٣٩] ، وهذه الآية وردت في سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ، ولكنها ليست خاصة به ، وإنما هي عامة لجميع الأنبياء والمرسلين الذين اصطفاهم الله ، وصنعهم

---

(١) رواه ابن السمعاني في أدب الإملاء عن ابن مسعود .

على عينه ، وأهَّلَهم برعايته ، وتفسير الآية : أي ألقيت عليك محبة واقعة مني ، زرعتها في قلب من يراك ، ولذلك أحبك فرعون حين رآك ، « ولتصنع على عيني » أي ولتربى بين العدو على نظري بالحفظ والعناية ، « وعلى عيني » استعارة تمثيلية للحفظ والصون ، لأن المصون يجعل بمرأى ، وهذا بيان للمدرسة والمعهد الذي يتربى فيه الأنبياء ، ويتخرج منه الرسل ، ومنهم محمد ﷺ[1] .

وقال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ خاصّة : ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ ﴾ [الطور : ٤٨] ، قال ابن جرير الطبري : « أي بمرأى منا ، نراك ونرى عملك ونحن نحوطك ونحفظك ، فلا يصل إليك من أرادك بسوء من المشركين »[2] ، ونكتة جمع « العين » هنا هو المبالغة في الحفظ ، حتى كأن معه جماعة حفظة له بأعينهم ، ولأن مكايد الكفار كثيرة ، ومشاق التكاليف ، وأفعال الطاعة عديدة ، فيحتاج كل منها إلى حارس وحرّاس[3] .

---

(١) انظر : تفسير القاسمي ١١/ ٤١٧٩ .
(٢) انظر : تفسير الطبري ٢٧/ ٣٧ .
(٣) انظر : تفسير القاسمي ١٥/ ٥٥٥٠ .

وبعد الاصطفاء والاختيار والتأهيل ، تخرج رسول الله ﷺ من مدرسة الرعاية الإلهية ، والاصطفاء الرباني ، وانطلق من مهد النبوات ، ومعهد الرسالات ، ليكون رسولاً ومعلماً في آن واحد ، ويتشرف بحمل هذه الشهادة من رب العالمين .

والدليل على هذا ما رواه ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، قال : خَرَجَ رسول الله ﷺ ذات يومٍ من بعض حُجُرِه ، فدخل المسجدَ ، فإذا هو بحلقتين ، إحداهما : يقرؤون القرآن ، ويدْعون الله ، والأخرى : يتعلّمون ويُعلِّمون ، فقال النَّبي ﷺ : « كلٌّ على خير ، هؤلاء يقرؤون القرآن ، ويدْعُون الله ، فإن شاءَ أعطاهم ، وإن شاء منعهم ، وهؤلاء يتعلّمون ويُعلِّمون ، وإنَّما بُعثتُ معلِّماً ، فجلس معهم »[1] .

وكان عليه الصلاة والسلام مُعلِّماً ناجحاً ، ومربياً قديراً ، وتشهد له النتائج التي حققها ، والآثار التي تركها على أصحابه ، أفراداً ومجتمعين ، في حياته وبعد وفاته .

فمن ذلك ما رواه مسلم عن معاويةَ بن الحكم السُّلَمي

---

(١) سنن ابن ماجه ١/ ٨٣ .

رضي الله عنه ، قال : بَيْنا أنا أُصلِّي مع رسول الله ﷺ إذ عَطَسَ رجل من القوم ، فقلتُ : يرحمُكَ الله ، فرماني القومُ بأبصارهم ، فقلت : واثكْلَ أُمّياه ، ما شأنُكم تنظرون إليَّ ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، فلما رأيتهم يُصمِّتونني ، لكني سكتُّ ، فلما صلَّى رسول الله ﷺ ، فبأبي هو وأمي ، ما رأيتُ معلِّماً قبله ولا بعده أحسنَ تعليماً منه ، فوالله ما كَهَرَني (أي ما انتهرني) ، ولا ضربَني ، ولا شتمني ، قال : « إنَّ هذه الصلاة لا يصلحُ فيها شيءٌ من كلام الناس ، إنَّما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن »[1] الحديث ، قال النووي : « فيه بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخلق الذي شهد الله تعالى له به ، ورِفقه بالجاهل ، ورأفته بأمته ، وشفقته عليهم ، وفيه التخلق بخلقه ﷺ في الرفق بالجاهل ، وحسن تعليمه ، واللطف به ، وتقريب الصواب إلى فهمه »[2] ، وقال رسول الله ﷺ : « إن الله أمرني أن أُعلِّمكم مما علَّمني . . . »[3] .

---

(١) صحيح مسلم ٥/ ٢٠ .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٥/ ٢٠ .

(٣) هذا طرف من حديث رواه الحكيم الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً=

وشهد الله تعالى لرسوله ﷺ في اكتمال صفات المعلم والمربي ، فقال عز وجل : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] وقال تعالى ، مبيناً ما فطر الله به نبيه ، واصطفاه به ، ورباه عليه ، وحفظه به ، وما شرعه له في الدعوة والتعليم : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

قال الحسن البصري : « هذا خلق محمد بعثه الله به »[١] ، ويقول رسول الله ﷺ : « إنَّ الله أمرني بمداراة الناس ، كما أمرني بإقامة الفرائض »[٢] .

ويسجل لنا القرآن الكريم شهادة أخرى لرسول الله ﷺ ، تجمعُ بين الاصطفاء والاختيار ، وبين الصفات التي يتمتع بها الرسول ، والمؤهلات التي يستحقها ، فقال تعالى : ﴿ لَقَدْ

= (الفتح الكبير ١/ ٣٢٥) .

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٤١٩ .

(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس ، الفتح الكبير ١/ ٣٢٥ .

جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ (١) عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة : ١٢٨ـ١٢٩] .

٢ـ التوجيه القرآني للرسول في التربية :

إن الله تعالى لم يخلق الناس عبثاً ، ولم يتركهم سُدى ، فابتعث لهم الرسل ، وأنزل عليهم الكتب ، وكانت العناية الإلهية تحوط الرسل عامة ، ومحمداً خاصة ، من كل جانب ، فأنزل الله على رسوله ﷺ الكتاب والحكمة ، وكان رسول الله ﷺ يسير على منهج الوحي الإلهي في الدعوة والتربية ، والتعليم والوعظ .

ولم تقتصر الرعاية الإلهية على اصطفاء الرسول

---

(١) من أنفسكم أي رسول عظيم من جنسكم ومن نسبكم ، عربي قرشي مثلكم ، وهذا مدح لنسب النَّبي ﷺ وأنه من صميم العرب وخالصها ، وقرأ عبد الله المكي : « من أَنْفَسِكُم » بفتح الفاء من النفاسة ، أي من أشرفكم وأفضلكم .

واختياره ، ولم تقف عند إنزال العقيدة الصحيحة ، والأحكام الشرعية ، بل كانت تمتد عن طريق الوحي اللفظي بالقرآن ، والوحي المعنوي بالسنة ، إلى رسم الخط السديد للدعوة والتعليم ، والتربية والتوجيه ، وكان الوحي السماوي يحدِّد للرسول ﷺ معالم الطريق في معاملة الناس ، ويكشف له عن خبايا النفس الإنسانية وطرق معالجتها ، ومواطن الخير فيها ، ويسلِّط الأضواء على نوازع الشر في البشر ، والمنزلقات الكبيرة والعميقة ، أو البسيطة والسطحية التي قد يَتَرَدَّى فيها الإنسان وكيف يُمكن إنقاذه منها ، كما يحذِّر الوحي السماوي من شِراك الشيطان ، وينبه إلى شباكه التي يُحيكها ليعترض الإنسان ، ويزين له الأمور على غير حقيقتها ، ليضلَّه فكرياً ويحرفه عن الصراط السوي سلوكياً .

ومن هنا امتازت التربية النبوية بأهم خصائصها وسماتها ، وهي أنها تعتمد على منهج إلهي رباني ، وضعه رب العالمين ، الذي يعلم من خلق ، والذي أراد لخليفته في الأرض أن يقوم بهذه الخلافة الرشيدة ، وأراد للإسلام أن يكون آخر الرسالات السماوية ، وخاتمة الوحي الإلهي ، وجعله عاماً للبشرية ، فأكمل الله به النبوات ، وتوَّج

الرسالات ، وأنزل فيه كل ما يصلح للفرد والمجتمع والأمم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وأوحى الله تعالى بهذا المنهج إلى محمد ﷺ ، وكلفه أن يسير على منواله ، ويتبع خطاه ، دون أن يكلِّفه بالنتائج ، فقال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : ٢١-٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور : ٥٤] ، وقام الرسول ﷺ بواجب الدعوة والتبليغ ، والهداية والتبشير ، والتحذير والإنذار ، فاصطدم بالعقول المتحجِّرة ، والأفكار المتكلِّسة ، والتقاليد البالية ، والنفوس المريضة ، فضاق صدره ، وشق عليه الأمر ، فكشف الله تعالى له السر ، وبين له الحقيقة ، وأضاء له سبل الدعوة الطويلة الشائكة ، فقال تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف : ٦] ، وقال تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٣] ، وقال عزوجل : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [الزمر : ٤١] ، وقال عز وجل : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم

بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس : ١٠٨-١٠٩] .

وسار رسول الله ﷺ على هذا المنهج الرباني ، وبلّغ رسالة ربه ، وأدّى الأمانة التي حملها ، وتحققت النتائج العظيمة في ذلك[1] .

وكان الشعار النظري والعملي لهذا النهج التربوي الرباني هو قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

وتضمن القرآن الكريم ، وهو كلام الله تعالى الموحى بلفظه ومعناه ، منهجاً تربوياً كاملاً في ثناياه ، وكل آية من آياته تقيم لبنة في هذا البناء والمنهج ، سواء كانت الآيات

---

(١) انظر الكتب التي ظهرت في هذا الخصوص : منهج القرآن في التربية ، محمد شديد ، منهج تربوي فريد في القرآن ، للأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، معجزة الإسلام التربوية ، الدكتور محمود السيّد ، الرسول العربي المربي ، الدكتور عبد الحميد الهاشمي .

تتعلق بالإنسان أو بالكون أو بالحياة ، وسواء وردت في الإيمان بالله تعالى وصفاته وأسمائه أو في سير الأنبياء والمرسلين ، أو في أحكام الشرائع السالفة ، أو في بقية جوانب العقيدة ، أو في العبادة والأخلاق أو التشريع ، وسواء في ذلك الآيات التي وردت في مخاطبة الرسول وأمته ، أو ما تحدثت عن الأمم الأخرى ، أو القصص الرمزية أو الحقيقية في التاريخ ، توجيهاً لرسول الله ﷺ ، وتثبيتاً لقلبه ، وإرشاداً له في الدعوة والتربية ، أو تعليماً لأمته ، وبياناً لسنة الله في خلقه ، قال الله تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : ١٢٠] .

ونكتفي بالإشارة إلى بعض المبادىء التربوية التي جاءت في القرآن الكريم لتبين منهجه في التربية بشكل صريح وواضح ومباشر .

قال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

والحكمة هي وضع الشيء في محله وسيلة وغاية ، وهو

لفظة جامعة مانعة ، وفسرها ابن جرير الطبري بأنها : « ما أنزل الله من الكتاب والسنة »[1] ، فالدعوة بالحكمة ، والتربية بالموعظة الحسنة ، والجدال والنقاش والاقتناع بالوسيلة التي هي أحسن ، هو أسلوب القرآن ، وهو الطريق الأقوم في التربية ، وهو الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة ، وهذا ما رسمه رب العالمين ، ونفذه سيّد المرسلين ، المعلم الأول ، المأمور بالتبليغ والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة .

وبيَّن القرآن الكريم مبدأ تربوياً آخر في رعاية المتعلمين الذين يقبلون على الدعوة ، وبيَّن حاجتهم إلى الرسول المعلم بينهم ، والفائدة المتوخاة من اللقاء معهم ، فقال تعالى : ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف : ٢٨] .

ويؤكد القرآن الكريم هذا المعنى بمناسبة قصة وقعت مع الرسول ﷺ أثناء قيامه بالدعوة إلى رؤساء القوم وزعمائهم ،

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ١٩٤ .

مع حرصه على إيمانهم ، وطمعه في الثمار الكبيرة من وراء دخولهم بالإسلام ، ويحاول أن يراعي مشاعرهم المتكبرة ، ونفوسهم المتعالية ، ونظرتهم الطبقية ، وأنفتهم من الاجتماع بالفقراء ، فيقدم عليه ـ في هذه الأثناء ـ عبد الله بن أم مكتوم الكفيف الفقير ، ذو الثياب الرثة ، والحالة الكئيبة ، فيضيق صدر الرسول ﷺ ذرعاً بقدومه ، خشية أن يفسد عليه ما يسعى إليه ، ويطمع به ، فيأتي العتاب الرباني للرسول ، مبيناً أن الهداية بيد رب العالمين ، وأن النفع والخير لا يتوقف على إيمان هؤلاء المتغطرسين ، المتكبرين ، وأن أمراضهم النفسية قاتلة ، فلا ينفع معها علاج أو دواء ، وأن التبر يمكن تنقيته حتى يجلو الذهب براقاً نافعاً ، فقال تعالى : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾[1] [عبس : ١ـ١٢] .

وهذا يدل على أن المؤمن الفقير خير من الكافر الغني ،

---

(١) أسباب النزول ، للواحدي ، ص ٣٦٥ .

وأن النظر إلى المؤمن أولى ، وإن كان فقيراً ، فهو أولى وأصلح من الإقبال على الأغنياء طمعاً في إيمانهم ، وإن كان ذلك نوعاً من المصلحة ، وكان رسول الله ﷺ إذا رأى عبد الله بن أم مكتوم بعد ذلك يقول : « مرحباً بمن عاتبني فيه ربي » ، ويبسط رداءه له ، وقد استخلفه على المدينة مرتين .

وسلك رسول الله ﷺ الطريق الرباني في الدعوة والتربية ، وترسَّم خُطا المنهج القرآني في التعليم ، وأقام المبادىء القويمة ، وشرع الطرق المحكمة في معاملة الصحابة حتى حقق النتائج الكبيرة ، وخلَّد السيرة العطرة ، والمنهج التربوي الرشيد .

وهذا المنهج الرباني في التربية النبوية يعطي المسلم أصالة ذاتية تربوية ، تتفق مع التصور الإسلامي الكامل عن الخالق والإنسان والكون والحياة ، وتمنح المسلم استقلالاً فكرياً ، وشخصية مستقلة ، وتميُّزاً كاملاً ، فلا يرتبط إلا بالله ، ولا يُعلِّق أمله وقلبه وفكره وعقله إلا بربه ، ولا يبغي في حياته وسلوكه إلا مرضاة الله تعالى ، وهذا المنهج يحمي المسلم من التبعية والذل ، ويجنبه مزالق الاستعمار والاستعباد ، ويكسبه المناعة من الذوبان في بَوْتقات الأعداء الذين يُريدون

صهره من الداخل بأسلوب استعماري فكري تربوي عميل ودخيل .

وهاتان الخاصتان من خصائص التربية النبوية الخاصة والذاتية لرسول الله ﷺ ، ولكن الخاصيّة الأولى لا يشاركه فيها أحد بعده ، ولا يمكن لعالم أن يتربى أو يتخرج من المدرسة الإلهية التي خصَّصها الله لأنبيائه ورسله وقد انقطع الوحي ، وختمت الرسالات ، وانتهت النبوات ، وكان محمد خاتم النبيين والمصطفين الأخيار ، أما الخاصيَّة الثانية فكانت تنزل على الرسول المعلم الأول من السماء ، وينحصر اللقاء الإلهي به ، ولكن رسول الله ﷺ خلَّفه لمن بعده ، واختطه للمسلمين ، وكان خاصيَّة من خصائص التربية النبوية ، فصار خاصيَّة للتربية الإسلامية عامة ، ينهل منه المسلمون ، ويهتدي بهداه المعلمون ، ويقتبس منه المصلحون ، ويعكف عليه العلماء ، ويتطلع إليه المربون .

* * *

القسم الثاني

الخصائص العامة للتربية النبوية

وهذه الخصائص تتميز بها التربية النبوية ، وكانت ذات تأثير في حياته ، ولها ضوء ناصع في التاريخ ، وبقيت منارات يهتدي بها العلماء المسلمون في تربية الأجيال المسلمة ، وتخص التربية الإسلامية دون غيرها .

١ـ النزعة الإنسانية في التربية النبوية :

إن الهدف الأول ، والمقصد الأسمى ، والمحور الرئيسي ، للنبوات والرسالات أصلاً : إنما هو الإنسان ، والإنسان فقط ، ليكون خليفة في الأرض ، ولتأمين مصالحه ، وتحقيق حاجاته ، فتجلب له المنافع ، وتَدْرأُ عنه المفاسد ، وترفع عنه الضرر .

وإن الله تعالى كرَّم هذا الإنسان ، وخلقه في أحسن تقويم ، وسخَّر له ما في السموات والأرض ، وذلَّل له

الجبال ، ومهَّد له السهول ، وخزن له ما في البحار ، فنقطةُ الارتكاز الأساسية للنبوة والرسالة هو الإنسان ، ومن هنا اتجهت التربية النبوية إلى الإنسان ، دون النظر إلى صفاته العارضة ، وأحواله الخاصة ، ودون اعتبار لفوارق الجنس أو اللون أو العرق ، أو اللغة أو غيرها .

والإنسان من أعظم مخلوقات الله ، وأكثرها تعقيداً في تركيبه ، ولم يستطع التقدم والعلم أن يَسْبُرَ غوره ، ويكشف ذاته ، مع كل الاهتمام فيه ، وبقي الإنسان ، وخاصة في النواحي المعنوية ، والروحية والنفسية ، ذلك المجهول البعيد أمام العلم والبحث والنظر ، وحتى في النواحي العضوية يقف العلم موقف العَجْزِ والحيرة في التركيب والتناسب والانسجام والأداء بين الأعضاء ، مثل تركيب الدم ، وعمل الدماغ ، ونشاط الغدد ، وانسجام كريات العين[1] .

والله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان ، ويعلم تركيبه ، وما يصلحه ، وما يفسده ، والله وحده يعلم كل

---

(١) انظر كتاب : الإنسان ذلك المجهول ، تأليف ألكسيس كاريل .

ما في الإنسان من الدقة والعظمة في خلقه ، ولذلك أمرنا بالنظر في ذات الإنسان لنصل إلى معرفة الخالق وقدرته وعظمته ، ولنعرف حقيقة أنفسنا ، ونكشف أغوار ذاتنا ، وندرك حقيقة الواقع ما أمكن ، قال تعالى : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٠ـ٢١] ، وقال عز وجل : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] ، وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾ [الروم : ٨] ، فالآيات دعوة صريحة للتأمل بالنفس ، والتفكير في ذاتها ، وإطالة النظر في ثناياها ، والبحث في أعماقها ، للانطلاق إلى الكون ، والتكيُّف مع الحياة ، والوصول إلى الخالق المُبْدع ، والتعرُّف على الصلة بالله ، وحكمته في الخلق ، وأنه لم يخلق الإنسان عبثاً ولا باطلاً .

ولهذه الحقائق الواقعية اتجهت التربية النبوية نحو الإنسان ، كإنسان كامل ، إنسان مخلوق ، وهدفت إلى بناء الإنسان الكامل ، الكامل في عقله ، الكامل في أخلاقه ،

الكامل في سلوكه ، الكامل في تفكيره ووعيه ، الكامل في معاملاته ، الكامل في عبوديته لله ، الإنسان الكامل في كرامته ووجوده ، هذا ما سعى إليه النَّبي ﷺ ، وغرسه في نفوس أصحابه ، وجذب به الملايين إلى دينه ودعوته ، ورغَّب فيه من يحب الإنسانية ، ومن يعشق القيم الإنسانية ، ومن يحلم بأسمى صور الإنسانية للإنسان ، ويتمنى أن يحيا كإنسان .

فالإسلام نظام إنساني ، يهدف إلى تحقيق مصلحة الإنسان ، والحفاظ على حقوقه الطبيعية والاجتماعية دون تمييز عنصري أو قومي ، وسواء أكان مسلماً أو غير مسلم ، وسواء أكان مواطناً أو غير مواطن ، ولا يفاوت بين الناس إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وقيمةُ كل إنسان بما يتقنه ، وبمقدار ما يحسن وما يقدم من الأعمال ، قال تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٢] ، ومن فضول القول أن نبين أن الإسلام يرعى الإنسان كإنسان ، سواء أكان رجلاً أو امرأة ، زوجاً أو زوجة ، أباً أو أماً ، أخاً أو أختاً ، عماً أو عمة ، خالاً أو خالة ، من العَصَابات أو ذوي الأرحام ، ومن الأقارب أو الجيران أو غيرهم .

وهذا ما قصده رسول الله ﷺ في تربيته ، وسعى إليه في بناء الإنسان المسلم ، وغرسه في نفوس صحابته ، وربَّاهم عليه .

وهذا ما تمثَّله صحابة رسول الله ﷺ ، وتلقَوْه منه ، ثم نقلوه عنه إلى غيرهم ، ثم حملوه دعوة إلى الناس جميعاً .

وقد بيَّن الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب هذه المعاني السامية للنجاشي ملك الحبشة ، بعد أن أرسلت قريش من يثير حفيظة النجاشي على المهاجرين المسلمين ، ويفسد العلاقة بينهما ، ويحرِّض النَّجاشي على البَطْش بالمسلمين وطردهم من بلاده ، وتسليمهم إلى أعداء الله وأعدائهم ، فأراد النجاشي أن يستوثق من الأمر ، فسأل جعفراً عنه ، فأجابه بجواب يبين فيه الحالة الجاهلية التي كانوا عليها ، ويقارنها مع الدعوة الإسلامية الجديدة التي دخلوا فيها ، والمبادىء والقيم التي آمنوا بها ، والعقيدة التي انتسبوا إليها فقال :

« أيُّها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونُسيءُ الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكُنّا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحِّده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد

نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبدَ الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ـ فعدَّد عليه أمور الإسلام ـ فصدَّقناه ، وآمنا به ، واتّبعناه على ما جاء به من الله ، فعبَدْنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرَّم علينا ، وأحللنا ما أحلَّ لنا ، فعَدَا علينا قومنا ، فعذَّبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا ، وظلمونا ، وضيَّقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك » .

وتلا عليه ما تيسَّر من القرآن من صدر سورة مريم ، فبكى النجاشي ، وقال : « إنَّ هذا والذي جاء به عيسى ليَخْرُجُ من مشكاة واحدة » انطلقا ، فلا والله ، لا أسلمهم إليكما »[1] .

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (١/٢٠٢ ، ٥/٢٩١) ، وابن هشام في السيرة النبوية (١/٣٣٦) .

فالتربية النبوية إنسانية المنشأ ، إنسانية الهدف ، إنسانية الوسيلة ، إنسانية في جميع جوانب الإنسان ، دون أن تهتم بناحية دون أخرى ، بل تولي اهتمامها بالإنسان في جسمه وروحه وعقله ، وتهتم بالإنسان في عواطفه وغرائزه وميوله ، وتعتدُّ بالإنسان في نشأته الظاهرة ، وفي تكريمه على بقية المخلوقات ، وفي حسن صورته ، وفي حياته الثمينة ، وفي وفاته ، وانتهائه ، بل وبعد وفاته ودفنه ، وفي قبره وجدثه ، وفي بعثه وحسابه .

وقد حققت التربية النبوية هذا الهدف ، وتميّزت بهذه الخاصية ، وانفردت بهذه السمة على بقية النظريات التربوية القديمة والحديثة ، وبلغ أصحاب رسول الله مثلاً أعلى في تكوين الإنسان الكامل ، وفي رعاية الإنسان الكامل ، وفي تربية الإنسان الكامل ، وكانت تربية المسلمين الصادقين في كل زمان ومكان ، صورة عن الإنسان الكامل ، ونموذجاً رفيعاً لإنسانية الإنسان .

وهذه الصفة الإنسانية في التربية النبوية جذبت الملايين للدخول في الإسلام ، واعتناقه عقيدة وشريعة ، إيماناً ونظاماً ، بل لفتت هذه الصفة الإنسانية أنظار المستشرقين

المُنْصفين ، فمن ذلك ما قاله المستشرق الألماني البروفسور « موزر » بعد سماعه محاضرة في التربية النبوية في جامعة الجزائر ، قال : « اليوم أدركتُ عظمةَ النَّبي محمد ، وسرَّ نجاحه وانتصاراته ، لقد أولى بناء الإنسان اهتمامه بناء متكاملاً ، إننا نَجْهل أموراً كثيرة عن النبي محمد ، وبخاصة ما أوضحته في محاضرتك عن سمو الأهداف التي رسمها لأصحابه في جهادهم ، وعن الصورة المتكاملة التي ربَّى عليها أصحابه »[1] .

وهذا المعنى المقصود للنزعة الإنسانية يفسِّر لنا أسلوب الخطاب الشرعي ، فنرى أن النصوص الشرعية في القرآن والسنة تخاطب الناس جميعاً ، « يا أيُّها النَّاس » ، وقدوردت لفظة « الناس » في القرآن الكريم وحده مائتين وإحدى وأربعين مرة ، كما خاطب القرآن الكريم الإنسان بلام الجنس ، ليشمل جنس الإنسان دون تقييد بوصف أو جنس أو لون ، وتكررت لفظة « الإنسان » في القرآن الكريم أيضاً خمساً وستين مرة ، وأكدت النصوص الشرعيَّة أن محمداً ﷺ

---

(١) معجزة الإسلام التربوية ، الدكتور محمود أحمد السيد ، ص ١٠ .

رسول ونبي ، ومعلم ومرب للناس جميعاً ، وللعالمين ، وليس لقوم دون آخرين ، ولا لجنس دون غيره ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [النساء : ١٧٠] ، وقال تعالى : ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٨] ، وقال عز وجل : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، وقال جل وعلا : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] .

ولم تبق هذه النصوص في حيز النظريات والفلسفات المجردة ، أو الشعارات المرفوعة ، أو الخيالات الذهنية ، أو الدعايات البرّاقة ، بل تحققت سلوكاً وعملاً منذ أول الدعوة ، وفي مجتمع البعثة الأولى ، فكان المسلمون الأوائل يتألفون من مجتمع إنساني عالمي ، منهم العربي القرشي كأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ ، ومنهم الفارسي كسلمان ، ومنهم الرومي كصهيب بن سنان ، ومنهم الحبشي كبلال بن رباح وسواهم .

ثم انصهرت الشعوب والأمم في التربية النبوية ، وأقاموا الحضارة الإنسانية ، والمجتمع الإنساني ، والدولة الإنسانية

على أوسع رقعة من الأرض ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وأكد رسول الله ﷺ هذ النزعة الإنسانية في تربيته ، وأعلن هذا المبدأ أو الهدف في أقواله ، وعالج الشذوذ والعصبية والانحراف بأفعاله وسيرته ، والأحاديث في ذلك كثيرة ، فقال عليه الصلاة والسلام ـ فيما رواه الحاكم والطبراني ـ : « سَلْمان منّا آل البيت » ، وروى البيهقي عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أيُّها الناس ، إنَّ ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدمُ من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربي على أعجمي ، ولا لأعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر ، فضلٌ إلا بالتقوى ، اللهم هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ، ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » ، وروى أبو يعلى والبزار والطبراني أن رسول الله ﷺ قال : « الخلقُ كلُّهم عيالُ الله ، فأحبُّهم إلى الله أنفعهم لعياله »[1] .

---

(١) الفتح الكبير ٢/ ١٥٩ ، ١٠٥ .

فأين هذه الميزة للتربية النبوية من التربية العائلية ، أو القبلية ، أو العشائرية ، أو المحلية ، أو العنصرية ، أو القومية ، التي ظهرت في التاريخ ، وتتغير رويداً رويداً في العصر الحديث ، مع بقاء آثارها حتى القرن العشرين .

٢ـ الشمول في التربية النبوية :

يتفرع عن الصفة الإنسانية للتربية النبوية خاصيَّة أخرى ، وهي الشمول ، ذلك أن الإسلام جاء بعقيدته وشريعته ليشمل جميع الجوانب التي تتعلق بحياة الإنسان وترعاه من المَهْد إلى اللَّحْد ، وتغطي جميع مجالات الحياة الإنسانية ، فخاطب الإسلام العقل ، واعتمد عليه ، وسعى لتغذيته ، ودعا لتنميته ، وحرِصَ على تفتحه ، وبوَّأه المكانة اللائقة ، والرعاية الكاملة ، ثم عمل الإسلام على تغذية الروح ، وإشباع تطلعاتها ، وإرواء طموحاتها ، ودعا إلى الأخلاق الفاضلة ، واعتبر بناء الأخلاق من أهم أهداف الرسول ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكارِمَ الأخلاق »[1] ، واهتمت التربية النبوية

---

(١) رواه البخاري في « الأدب » والحاكم والبيهقي ومالك وأحمد (الفتح الكبير ١/ ٤٣٧ ، فيض القدير ٢/ ٥٧٣ ، مسند أحمد ٢/ ٢٨١) .

ذاتهم وأسرتهم ومجتمعهم ، فنظّمت علاقة الإنسان بنفسه ، وعلاقة الإنسان بربه ، وعلاقة الإنسان بأفراد مجتمعه ، وأحكمت العلاقة بين المواطن والدولة ، وربطت الإنسان بالكون ، ودعت إلى إعمار الأرض واستغلالها ، واعتبرت عمر الإنسان رأس المال الحقيقي عنده ، وأعظم ثروة لديه ، فالإسلام هو الحياة ، ولم تحصر التربية النبوية الحياة الإنسانية بأمد قصير ، وحياة فانية ، بل فتحت أمامها الدار الآخرة ، والحياة الدائمة ، والنعيم الخالد .

والتربية في الأعم الأغلب ، تتجه إلى الصغار والناشئين ، الذين ينتقل إليهم التراث الثقافي الذي تشكَّل عبر القرون والبيئة والمجتمع ، ليحدِّدَ سلوكهم ، ويكسبهم المهارات المختلفة ، ويمنحهم قدرة التكيُّف مع الناس ، ويعتبر علماء التربية أن هذه العملية معقَّدة وصعبة ، وأن نتائجها محدودة ، على الرغم من الاستعداد الكافي عند الصغار والناشئين ، وانتفاء الرواسب الفكرية عندهم ، وصفاء الخلفية من المؤثرات السابقة التي تحول بينهم وبين التربية .

أما التربية التي قام بها الرسول ﷺ فكانت موجهة أصلاً للكبار والمسنين ، والكهول والشيوخ ، ومن هم أكبر سناً من

الرسول الذي تجاوز الأربعين عاماً عند أول البعثة ، وكان هؤلاء الأشخاص ـ سواء في مكة أو المدينة أو الجزيرة العربية ، أو خارجها وما حولها ـ يشكلون مجتمعاً متكاملاً ، ويحملون ثقافات واسعة ، ولهم خلفيات عميقة ، ورواسب ذات جذور ، فكانت العملية التربوية بينهم أشدَّ تعقيداً ، وشبهَ مستحيلة ، وكانت العقبات في وجه الرسول شديدة وعويصة ، والصعوبات جمَّة وكثيرة ، وكانت تترك آثاراً واضحة على نفسية الرسول المعلم ، فكان القرآن الكريم يَرْسم له الطريق ، وينير له الحياة ، ويوجهه إلى الثبات والاستمرار .

ولم يتجه الرسول المعلم إلى تربية الفئة المختارة من الناس فحسب ، والطبقة المتفتحة منهم ، ومن سيكون في المستقبل معلماً ومدرساً ، أو داعياً وموجهاً ، بل كان مكلَّفاً بدعوة جميع الناس ، وكانت تربيته شاملة أفراد المجتمع ، الكبير والصغير ، الغني والفقير ، الذكر والأنثى ، الذكي وغيره ، المتعلم والعامي ، وهذه التربية النبوية مقررة للأجيال اللاحقة ، والأمم التالية ، والحضارات التي ستقام ، وأنها ستبقى في مجال التطبيق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ،

ينهل منها المفكرون والعقلاء ، ويرتاد جنباتها المسلمون والدعاة ، ويستفيد منها الجماعات والأفراد .

وكانت نتيجة هذه التربية النبوية على مختلف الأصْعِدَة ـ وستبقى ـ تخريج الأجيال ، التي ترتبط بالرسول المعلم ارتباطاً مصيرياً ، وتجعل منه قدوة وأسوة ، وتعلن محبته ، وتفضِّله على النفس والمال ، والولد والوالد ، وتفديه بكل شيء ، وتردد المبدأ التربوي الرائد ، بأبي أنت وأمي ، فداك أبي وأمي يارسول الله ، تحقيقاً للحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم وأحمد والنسائي وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يُؤْمِنُ أحدُكُم حتى أكونَ أحبَّ إليه من وَلَدِه ، ووالدِهِ ، والنَّاسِ أجمعين »[1] ، وكان أثر ذلك في نفوس صحابته ما أخرجه الطبراني عن عائشة رضي الله عنها قالت : جاء رجل إلى النَّبي ﷺ فقال : يارسول الله ، إنَّكَ لأحَبُّ إليَّ من نفسي ، وإنَّكَ لأحَبُّ إليَّ من وَلَدي ، وإنِّي لأكونُ في البيت فأذكركَ ، فما أصبرُ حتى آتي فأنظرَ إليكَ ، وإذا ذكرتُ موتي وموتَكَ

---

(١) الفتح الكبير ٣/ ٣٥١ .

عرفتُ أنَّكَ إذا دخلتَ الجنَّةَ رُفِعْتَ مع النَّبيين ، وأنِّي إذا دخلتُ الجنَّةَ خشيتُ أن لا أراكَ ، فلم يردَّ عليه النَّبي ﷺ شيئاً حتى نزلَ جبريل عليه السلام بهذه الآية : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[1] [النساء : ٦٩] ، والأمثلة على ذلك كثيرة في حياة الصحابة ، وهي ظاهرة ملموسة ومتكررة في نفوس المسلمين في كل زمان ومكان .

إن هذا الشمول في التربية النبوية أنتج الإنسان الكامل في أخلاقه ، والإنسان السَّوي في حياته وتصرفاته ، والإنسان المستقيم في سلوكه ، والإنسان السامي في روحه ، والإنسان المُتَّزِنَ في أعماله ، والإنسان القدير على حمل المسؤولية ورعايتها ، والإنسان الواعي في عقله ، والإنسان المتفتح لمستقبله ، والإنسان الفاضل في حب الخير لنفسه ، ولغيره على حدٍّ سواء .

وإن التربية لا تنجح في سعيها ، ولا تُنتج ثمارها ، ولا تعطي محصولها إلا إذا أحاطت بالإنسان إحاطة كاملة شاملة

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ، ص ١٤٠ .

من جميع الوجوه والنواحي التي يتركب منها جسمياً وعقلياً ونفسياً ، وروحياً ، وعضوياً وانفعالياً ، وأن هذه التقسيمات للإنسان هي لمجرد الدراسة والبحث ، فلا انفصال فيها ، ولا حدود بينها ، وهي كلٌّ تتفاعل مع بعضها ، ويُؤثِّر بعضها في الآخر ، ولابد من الرعاية الكاملة والاهتمام الكافي لجميع الجوانب ، وإلا كانت التربية عرجاء أو مشلولة ، أو أدَّت إلى الانحراف إلى جانب ، أو وقعت في الإفراط والتفريط ، وأفقدت الإنسان جزءاً من إنسانيته ، وهو ما حصل في أنواع التربية التي اهتمت بأحد جوانب الإنسان وأهملت غيره .

وهذا ما حذَّر منه الدكتور ألكسيس كاريل ، فقال : « كثيراً ما يحدث أن نعطي أهمية مبالغاً فيها لجزء ما على حساب أجزاء أخرى ، فيتعين علينا أن ننظر إلى الإنسان من مختلف جوانبه ، الفيزيو ـ كيميائية ، والتشريحية ، والفيسيولوجية ، والروحانية ، والعقلية ، والأخلاقية ، والفنية ، والدينية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، إلخ . . . » ، ثم يقول : « يخيل إلى كل عالم تحت تأثير التخصص المهني الضيِّق أنَّه يعرف الكائن الإنساني ، مع أنه لا يعرف منه إلا جزءاً يسيراً ، فتعتبر وجهات النظر الجزئية

كأنها تعبر عن الكل » ، ثم يقرر الحقيقة كاملة فيقول : « الإنسان غير قابل للتقسيم إلى أجزاء . . . ، فلو أننا فصلنا أعضاءه بعضها عن بعض لكف عن الوجود ، وعلى الرغم من عدم قابليته للتجزئة ، فإن له جوانب منوعة »[1] .

هذه النظرية الكلية الشاملة للإنسان ، مع مراعاة الأجزاء المكون منها ، والجوانب المختلفة المركب منها ، كانت محط النظر في التربية النبوية الشاملة بعُمْق وإدراك ، ووعي وتخطيط ، وتوجيه وتنفيذ ، وشُرعت الأحكام الشرعية أصلاً لمعالجة هذا الإنسان الكامل ، وتشمل جميع جوانبه ، وتلبي له احتياجاته ، وتروي له متطلباته ، وجاءت الشريعة الغراء لتأمين مصالح الإنسان ، فنصَّت على كل منها ، وبيَّنت أهميتها وخطورتها ومكانتها في تحقيق السعادة للإنسان ، ثم أنزلت الأحكام لتحقيقها ، وكان منهج التشريع في ذلك يسير على خطين متوازيين ، أحدهما : ينص على الأحكام الشرعية التي تؤمِّنُ وجود الإنسان ، وإيجاد مصالحه وتكوينها ، والثاني : يبين الأحكام الشرعية لحفظ الإنسان ، وحفظ

---

(١) الإنسان ذلك المجهول ، ص ٦٤ ، ٧١ .

مصالحه ، وصيانتها ورعايتها ، ومنع الاعتداء عليها ، أو الإخلال بها ، مع النص على ضمانها والتعويض عنها .

ولم تقتصر التربية النبوية على سعة الشمول في الإنسان ، بل تجاوزت هذه الصفة إلى سمة أخرى ، أكثر خطراً ، وأشد دقة ، وهي إقامة التوازن بين أجزاء الإنسان ، وبين متطلباته وحاجاته ، وبين الجوانب المتعددة التي يتركب منها ، أو ينغمس فيها ، أو يَقْبع بين جنباتها .

٣ـ التوازن في التربية النبوية :

تقوم الشريعة الإسلامية عامة ، والتربية النبوية خاصة ، على ميزة فريدة ، وهي إقامة التوازن الكامل بين جميع الأمور التي تتعلق بالإنسان عامة ، والتربية خاصة ، ذلك أن مصدر الشريعة ، ومُنزِّلَ المنهج التربوي فيها هو رب العالمين ، الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وصوَّرَه فأحسن صورته ، والذي خلق المخلوقات كلها ، ويعلم تركيبها ، ويعلم كل شيءٍ في الإنسان والكون والحياة وما وراء الحياة ، قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المجادلة : ٧] ، ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى

﴿ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة : ٩٧] ، وقال عز وجل : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق : ١٦] ، ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس : ٧٦] .

والله سبحانه وتعالى كشف لرسوله هذا الخباء ، ووصف له التشخيص الكامل للإنسان ، وبيَّن له العلاج المناسب ، والغذاء المفيد ، وحقق رسول الله ﷺ في سلوكه وحياته وسيرته هذا التوازن الكامل ، وقامت التربية النبوية على أساس متوازن ، ودعا الصحابة إلى هذا التوازن ، ورعى شؤون الإنسان بشكل متوازن من جميع الجهات ، وحدد منهج الإسلام في التوازن بين جميع الجوانب .

ـ فمن ذلك التوازن بين أمور الدين في العقيدة والعبادة ، وبين شؤون الدنيا بجميع أنحائها وأرجائها في المتع والملذات ، والغرائز والشهوات ، والبناء والإعمار ، والعمل والكسب ، والاجتماع والدولة ، والأفراح والأحزان .

ـ وكان رسول الله ﷺ يحقق هذا التوازن ، وهو نبي مرسل ، ومعلم مربٍّ ، ورئيس دولة ، وزعيم سياسة ، يُحسن سياسة الأصحاب ، كما يُحسن معاملة الخصوم والأعداء ، يُجيد تصرف شؤون الدولة الداخلية ، كما يبدع

في تحديد علاقة الدولة الإسلامية مع الدول الأخرى ، الحليفة منها والمعادية ، وفي أوقات السلم ، وفي ظروف الحرب على حد سواء .

ـ وكل هذا لا يشغله عن واجباته الزوجية ، وصلاته الاجتماعية ، وقيامه بشؤون نفسه وبيته ، ورعايته لأولاده ، وسائر المسلمين ، ولا يُنقص من صلته بالله تعالى بالعبادة والذكر ، وتلاوة القرآن وقيام الليل ، فكان عليه الصلاة والسلام أتقى الناس لربه ، وأكثرَهم له طاعة وعبادة ، وأشدَّهم حرصاً على مناجاته وشكره ، يقوم الليل لله ، ويكْدَح في النهار لأمته ودولته ومجتمعه وأهله وأسرته ، ويكفي في الاستدلال لذلك أن رسول الله ﷺ كان يقوم الليل حتى تَرِمَ قَدَماهُ ، وقالت زوجته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : « حتى تتفطَّر قدماه » ، والفطور الشقوق ، وانفطرت انشقت ، وروى البخاري ومسلم وأحمد عن المغيرة بن شعبة قال : « إن كان النَّبي ﷺ ليقوم ليصلي حتى تَرِمَ قدماه أو ساقاه ، فيقال له ؟ ، فيقول : أفلا أكونُ عبداً شكوراً » ، وفي رواية مسلم : « إن النَّبي ﷺ صلَّى حتى انتفخت قدماه ، فقيل له : أتُكَلِّفُ هذا ، وقد غُفِرَ لكَ ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر ؟

قال : أفلا أكونُ عبداً شكوراً »[1] .

ومن ذلك التوازن بين الدنيا والآخرة ، وهذا فرع من القسم الأول ، وهو التوازن بين الدين والدنيا ، وجاء القرآن الكريم لإقامة التوازن الدقيق والكامل بين الدنيا والآخرة ، فقال تعالى : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٧٧] .

وأدى رسول الله ﷺ التطبيق الصحيح والدقيق لهذا المنهج القرآني في تحقيق التوازن بين الدنيا والآخرة ، واتجهت التربية النبوية إلى إقامة هذا التوازن في صفوف الصحابة والمسلمين ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ليس بخَيْرِكم من تركَ دنياه لآخرته ، ولا آخرتَه لدُنياه ، حتى يصيبَ منهما جميعاً ، فإن الدنيا بلاغٌ إلى الآخرة ، ولا تكونوا كَلاًّ على الناس »[2] .

---

(١) صحيح البخاري ١/١٣٦ ، صحيح مسلم مع شرح النووي ١٧/١٦٢ ، مسند أحمد ٤/٢٥٥ .

(٢) رواه الديلمي وابن عساكر عن أنس بن مالك (الفتح الكبير ٧/٥٩) .

وحذَّر رسول الله ﷺ من احتمال ترجيح الآخرة على الدنيا ، وأن يتسرب ذلك إلى نفوس المتدينين ، فحرم الانقطاع عن الحياة الدنيا ، وأنكر التبتل والامتناع عن الزواج ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا رهبانيَّةَ في الإسلام »[1] ، والرهبانية هي التفرغ للطاعة والعبادة ، والانعزال عن الناس والحياة ، والعزوف عن الدنيا والمال ، والتخلي عن الطيبات والملذات ، وحرمان النفس من المباحات ، وقمع الشهوات والغرائز .

وأدرك صحابة رسول الله ﷺ هذا القصد من التوازن بين الدنيا والآخرة ، فكانوا رهباناً بالليل فرساناً بالنهار ، عباداً لله مخلصين له وأتقياء ، وفي نفس الوقت يصرِّفون أمور الدنيا من رئاسة الدولة حتى كسب القوت للعيال ، وأيقنوا أن الدنيا مَزْرعة للآخرة ، وترجموا التربية النبوية إلى حياتهم وعملهم ، وعبروا عنها بأقوالهم ، فمن ذلك قول علي

---

(١) هذا حديث مشهور على ألسنة الناس ، لكن قال ابن حجر : « لم أره بهذا اللفظ » وورد معناه بألفاظ قريبة في أحاديث رواها البيهقي والدارمي والإمام أحمد (كشف الخفا ٥٢٨ ، وانظر : محاسن التأويل ١/ ٣١٣٤) .

رضي الله عنه : « اعمل لدُنياكَ كأنَّكَ تعيشُ أبداً ، واعملْ لآخرتكَ كأنك تموتُ غداً » .

ومن ذلك التوازن بين الروح والجسد والعقل ، وهي العناصر التي يتكون منها الإنسان ، وسبق في سمة الشمول أن التربية النبوية شملت ذلك تماماً ، ولكن الأهم منه هو تحقيق التوازن بين هذه العناصر ، وقد أدى الخلل في رعاية أحد هذه العناصر دون بقيتها إلى شطط كبير في تاريخ البشرية من القدم حتى وقتنا الحاضر ، من زهد روحي عنيف ، قتل عند الإنسان جسمه ، وألغى عقله ، وجمَّد فكره ، وخدَّر حياته ، ونشل نشاطه ، ابتداء من الزهد الهندي القديم والحديث ، إلى المذاهب الروحية المعاصرة ، وبالمقابل نرى المادية القاتلة ، وتربية الغرائز الجامحة ، والانكباب على المادة والحياة الفانية ، والتغذية الجسمية التي أضحت مشابهة لتربية الأبقار ، أو تسمين العجول ، أو علف الماشية ، وأدت إلى انحطاط خلقي ، وشقاء نفسي ، واضطراب ذاتي ، فبعث اليأس في القلوب ، والاندفاع نحو الانتحار ، أو الانغماس في الشهوات التي لا حدَّ لها ، واهتم فريق ثالث بالعقل حتى حمَّله فوق ما يطيق ، وجعل منه إلهاً كاذباً ، وسار فيه وراء

الخيال والوهم ، وشغل الناس بفلسفات خيالية ، وأفكار خادعة ميتة لا حياة فيها[1] .

وجاءت الشريعة الغراء عامة ، ومنذ نزولها ، والتربية النبوية خاصة ، قولاً وعملاً وتطبيقاً ، ترعى الروح والجسم والعقل ، وتقيم التوازن بينها ، وجمع رسول الله ﷺ بين مناجاة الروح وتهذيبها ، وبين مخاطبة العقل وإقناعه ، وقضى على الخرافة والجهل والتقليد الأعمى ، وأنكر الكهانة والعرافة ، وحرَّم السحر والعبث الفكري والروحي ، ووازن بين مصلحة الإنسان وإرضائه لخالقه عز وجل ، وجمع بين التزام العقيدة ، وبين حرية الإنسان في تصرفاته من غير إكراه على الدخول في الدين ، ونهى الرسول ﷺ على الإفراط في جانب ، والتفريط في آخر ، ولو كان في مسائل الدين ، فقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم وأحمد عن ابن مسعود : « هَلَكَ المُتنَطِّعون » قالها ثلاثاً[2] ، والمتنطِّعون هم المبالغون في الأمور ، المتشدِّدون في غير موضع التشديد ، وروى

---

(١) انظر طرق تدريس التربية الإسلامية لنا ، ص ١٤٥ ، وظيفة الدين في الحياة ، لنا ، ص ٨٤ ، ١٣٦ .

(٢) الفتح الكبير ٣/ ٢٩٣ .

البخاري ومسلم وأصحاب السنن وأحمد والدارمي أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ لربِّكَ عليكَ حقًّا ، ولنفسكَ عليك حقًّا ، ولأهلك عليك حقاً ، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه »[1] .

ودعا رسول الله ﷺ إلى التوسُّط في الأمور ، والاقتصاد في الاعتقاد ، والسماحة في المعاملات ، ورهَّب من الإفراط حتى في العقيدة والعبادة والأخلاق ، ومنع التشدُّد في الأحكام والتصرُّفات ، وبيَّن أن الإفراط في أركان الإيمان والعقيدة بالله تعالى وأسمائه وصفاته ، وفي الأنبياء وصفاتهم يؤدي في الغالب إلى الكفر والشرك ، كما حصل مع الأمم السابقة ، وأن الإفراط في العبادة والنسك يخرج الإنسان عن وظيفته الأساسية في الحياة والكون ، ويقضي على التوازن الذي انتهجه الإسلام .

ومن فروع هذه السِّمة التوازن بين الفرد والمجتمع ، لأن التربية الإسلامية عامة ، والتربية النبوية خاصة ، تتجه إلى بناء الإنسان ، والاهتمام به كهدف قائم بذاته فحسب ، كما سبق ، ولكن النظرة الإسلامية تدرك أن الإنسان ليس فرداً

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٣٨٧ ، نزهة المتقين ١/ ١٧١ .

قائماً بذاته ، ولم يخلق من أجل أن يحيا لنفسه ، ولا يقبل أن يسعى لتحقيق مصالحه الذاتية فحسب ، فالإنسان يعيش في جماعة ، وهو اجتماعي بطبعه ، لذلك اتجهت التربية النبوية لمراعاة الجانب الاجتماعي في تربية الفرد ، وحرصت على بناء الإنسان باعتباره كائناً حياً مستقلاً قائماً بذاته من جهة ، وباعتباره عضواً قائماً في جماعة من جهة أخرى ، فالفرد يؤثِّر في المجتمع ، ويكسب من المجتمع ، والمجتمع يُبنى ويقوم على الأفراد ، ويمنحهم الكثير الكثير ، وكما تتوقف الحياة الاجتماعية على العناصر البشرية الفردية ، وعلى صحة الفرد ، وسلامته ووجوده وحياته ، فإن الفرد يتوقف نماؤه الكامل ، وسلوكه السوي ، ونشاطه الفعّال على أثر المجتمع فيه ، ورعايته له ، وقوة بنائه ومؤسساته .

والتربية الإسلامية اهتمت بكلا الطرفين ، واتَّجهت إلى تربية الفرد ، وإلى إقامة المجتمع الإنساني ، وإقامة أركانه وقواعده ، ولم تقف التربية النبوية عند هذه المرحلة ، بل استطاعت أن تقيم التوازن الكامل والعادل بين الفرد والمجتمع ، فلا يطغى الفرد على حقوق الجماعة ، فيستغل خيراتها ، ويحتكر قوتها ، ويستعلي عليها ، ويبتز مواردها ،

فيسيء إلى مجتمعه وأمته ، ثم يعود الويل والدمار عليه ، كما لا يجوز أن تطغى الجماعة على الفرد ، فتسلخه من إنسانيته ، وتجعله كالآلة للإنتاج والعمل ، وتحصر حياته بتأمين الغذاء والقوت كالحيوان ، وتقضي على ميوله وعواطفه ، وتحاول أن تجتث منه غرائزه وفكره وعقله ، فتحجِّم كيانه ، وتحدَّ من نشاطه ، وتغفل إنسانيته ، وتفتت وجوده ، فتسيء إليه أولاً ، فيكون معول هدم للمجتمع ذاته[1] .

ونجحت التربية النبوية في تحقيق هذا التوازن الحساس بين الفرد والمجتمع ، بينما أخفقت مناهج التربية الأخرى قديماً وحديثاً ، وخاصة في عصرنا الحاضر الذي تطغى فيه الفردية والأنانية في شطر الكرة الأرضية ، وتسود التربية الجماعية المفرطة في الشطر الآخر .

وفي هذا الخصوص فقد تكون التربية عامة وشاملة لكل نواحي الإنسان ، ولكنها لا تحقق التوازن الكافي بين عناصره وأجزائه ، وما يتعلق بالإنسان أو يتصل به ، فيقع الخلل ، وينتج الاضطراب .

---

(١) انظر طرق تدريس التربية الإسلامية ، لنا ، ص ١٤٧ـ١٥٢ ، وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه ، ص ٨٤ ، ١٣٦ .

وقد تسعى التربية إلى تحقيق التوازن في متطلبات الإنسان ، ولكنها تجهل بعض الجوانب الإنسانية أو الفطرية أو العضوية أو النفسية فيه ، فتقع التربية ـ حتماً ولا محالة ـ في الخلل والاضطراب ، ويظهر الشذوذ ، وينتج الانحراف ، ويفقد الاتزان .

وقد يكشف العلم تركيب الإنسان ، ولكنه لا يدرك النسبة الصحيحة بين أجزائه وعناصره الأولية ، فتقع التربية نتيجة هذا الجهل ، أو الخطأ في التشخيص ، في العجز والنقص ، أو الاضطراب والانحراف ، وهذا ما يُشير إليه الدكتور ألكسيس كاريل ، ويحذر من مَغَبَّته ، فيقول : « فنحن لا ندرك غير جوانب من الإنسان وأجزاء منه ، بل إن هذه الأجزاء ليست سوى نتاج طرائقنا في البحث ، ليس كل منا غير مَوْكب من الأشباح تسير وسطها الحقيقة التي لا يمكن معرفتها ، فالواقع أن جهلنا مُطْبِق » ، ثم يقول : « نحن بعيدون عن معرفة العلاقات التي توجد بين نمو الهيكل العظمي والعضلات والأعضاء ، وبين نمو النشاط العقلي والروحي ، وكذلك نحن لا نعرف ما الذي يسبب توازن الجهاز العصبي ومقاومة التعب والأمراض ، ونحن نجهل كذلك كيف نرقى بالحس

الخلقي والحكم والجرأة ، ما هي الأهمية النسبية لأوجه النشاط الفكري والخلقي والفني والديني »[1] .

وهذه العوارض ، أو النواقص ، أو الآفات والأخطاء ، مفقودة في التربية الإسلامية ، ومنتفية في التربية النبوية ، لأن المسلم ـ وإن جهل علمياً التركيب الصحيح والكافي والكامل للإنسان ـ فإنه يتلقى الدواء الشافي ، والأسلوب السليم لاستعماله من رب العالمين ، الخالق لهذا الإنسان ، الذي أبدعه وفطره ، إنه الخالق الحكيم ، ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن : ٣ـ٤] ، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] ، فالله الخالق المصور لهذا الإنسان يعلم تركيبه التام ، وحاجاته الكاملة ، وأنزل المنهج الإلهي الرباني في التربية لتغطية كل جانب فيه ، بما يكفيه ، دون زيادة أو نقصان ، وبالنسبة التي يحتاجها ، وهذا المنهج التربوي المنزل يشبه أجهزة التحكم النظامية في الوسائل الحديثة ، ويشبه الأعضاء التي خلقها الله تعالى وأبدعها في جسم

---

(١) الإنسان ذلك المجهول ، ص ٢٣ ، ٢٤ ، وانظر : منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، ص ٣٩ ، الرسول العربي المربي ص ١٩٧ .

الإنسان ذاته ، للتحكم في نظامه غذائياً ، وعضوياً ، وتعرف بالغدد .

وهذا المنهج التربوي يشبه إلى حد ما الأدوية التي تتركب من مواد مختلفة ، وبنسب محددة ، وكميات مقدرة ، وكل خلل في تركيب الدواء ، أو الزيادة في نسبة المواد المركَّب منها ، يؤدي إلى إفساده ، وربما إلى قلبه إلى مادة ضارة أو سامة أو معدومة النفع .

ومن هنا تظهر أهمية خصائص التربية النبوية في التوازن الذي حققه في تربية الإنسان منهجاً وسلوكاً ، نظاماً وتطبيقاً ، ولم يحقق هذا التوازن ثماره ونجاحه إلا بسبب صفة أخرى في خصائص التربية النبوية ، وهي السمو في الأهداف ، والوضوح في الغايات ، والصراحة في الوسائل .

٤ـ السمو في أهداف التربية النبوية :

إن خاصتي الشمول في التربية ، والتوازن فيها ، أمران عظيمان ، ولكن تبقى التربية مهيضة الجناح ، وقليلة الأهمية ، كليلة الجانب ، إن لم تكن الأهداف المرسومة لها جليلة وسامية .

وقد تتجه التربية أحياناً إلى الشمول ، وتسعى لتحقيق

التوازن عند الإنسان ، ولكن ضمن أهداف وضيعة ، أو غايات دنيئة ، أو عقائد فاسدة ، أو أفكار باطلة ، فيضيع المجهود ، وتغرق الوسائل في المصب النتن ، والحوض الآسن .

وقد تكون الأهداف سامية ، ولا ينكرها عاقل ، ولكنها محصورة في إطار محدود ، كالوطن والقوم ، مما يؤدي في النتيجة إلى عصبية جاهلية ، أو نزعة عنصرية ، أو وهيج وطني .

ومن هنا تتميز التربية عن غيرها بسمو الأهداف التي تسعى إليها ، وبعد الغايات التي ترمي إلى تحقيقها ، كما تصبح معرفة الهدف من التربية أمراً مقصوداً وجوهرياً وأساسياً ، وإلا ترنحت التربية في خطاها ، وتسربلت في حبالها ، وكانت كمن يخبط خبط عشواء ، أو يسير في الصحراء تائهاً من غير هدى أو دليل ، بل إن تحديد الهدف أمر ضروري في التصرف في الحياة لكل عاقل أو مفكر ، ومن يتصرف بدون هدف فهو الأهبل أو المعتوه أو المجنون ، وفي هذا يقول الشاعر :

كلٌّ له غرض يسعى ليدركه والحرُّ يجعل إدراك العلا غرضا

وقد اختلفت أهداف التربية قديماً وحديثاً ، فهدفت التربية اليونانية إلى إعداد المواطن الصالح ، وهدفت التربية الأفلاطونية إلى إعداد المواطن المستنير ، وهدفت التربية المسيحية إلى خلاص الإنسان من أدران الرذيلة ، وهدفت التربية الهندية إلى تطهير المرء من رجس الحياة الدنيا ، وهدفت التربية الطبيعية إلى تزويد العقل بالمعرفة ، واتجهت بعض المذاهب إلى الناحية الاجتماعية على حساب الفرد ، وحصر بعض العلماء الغاية من التربية بالجانب الأخلاقي ، ورقي الأخلاق الإنسانية ، أو بلوغ درجة الكمال الإنساني ، ويحصر بعضهم أهداف التربية بتأمين مهارة فائقة للفرد ، أو بالتكيُّف مع المجتمع والبيئة .

أما التربية النبوية ، فكانت تهدف إلى تحقيق الأهداف السامية ، والغايات النبيلة ، والنتائج الحقيقية ، والمعاني الواضحة التي تتعلق بالإنسان بشكل شامل ، وبأسلوب متوازن وتقصد إلى بناء الإنسان الكامل ، وإعداد الإنسان الصالح ، والإنسان باعتبار أنه إنسان ، دون حصره ، بوطن أو قوم ، أو أمة أو مجتمع ، أو لغة أو بيئة ، وإنما هو الإنسان الذي خلقه الله تعالى في أحسن تقويم ، وصوَّره في أحسن

صورة ، وجعله خليفة له في أرضه ، كما سبق ، حتى ولو اختلف مع المسلم في دينه وعقيدته ، وأفكاره وثقافته .

لذلك جاءت الشريعة لتأمين مصالح الإنسان عامة ، بجلب المنافع له ، ودفع المضار عنه ، فترشده إلى الخير ، وتهديه إلى سواء السبيل ، وتدله على البر ، وتأخذ بيده إلى الهدي القويم ، وتكشف له المصالح التي تؤمن له السعادة في أي مكان ، لأنها دعوة عالمية للناس جميعاً .

ويتحدد الهدف بتحقيق مصالح الناس في الدنيا والآخرة ، في العاجل والآجل ، ومصالح الناس في الدنيا هي كل ما فيه نفعهم وصلاحهم وسعادتهم وراحتهم ، وكل ما يساعدهم على تجنب الأذى والضرر ، ودفع الفساد إن عاجلاً أو آجلاً ، ومصالح الناس في الآخرة هي الفوز برضاء الله في الجنة ، والنجاة من عذابه في النار ، وإنَّ كل حكم شرعي إنما نزل لتأمين أحد مصالح الإنسان ، أو لدفع أحد المفاسد عنه ، أو لتحقيق الأمرين معاً ، وقد ثبت بالاستقراء أنه ما من مصلحة في الدنيا والآخرة إلا وقد رعاها الشرع ، وأوجد لها الأحكام التي تكفل إيجادها والحفاظ عليها ، وأن المشرع الحكيم لم يترك مفسدة في الدنيا والآخرة ، في العاجل والآجل ، تلحق

بالناس ، إلا بيَّنها لهم ، وحذَّرهم منها ، وأرشدهم إلى اجتنابها والبعد عنها ، وهذا ما لخصه الإمام القرافي بجملة قصيرة فقال : « الشرائع مبنية على المصالح »[1] .

وعلى ضوء هذه الأهداف والغايات تسير التربية النبوية في إعداد الإنسان الصالح ، بكل ما تحمل هذه العبارة من معان ، وبكل ما تعطي من وضوح « الإنسان الصالح » ، لنفسه وأمته ، ووطنه ومجتمعه ، ودينه وعقيدته .

فالهدف هو بناء الإنسان الكامل ، والإنسان الصالح من مختلف الجوانب التي يتركب منها ، في أصله ، ومنشئه ، وفي وجوده وتكوينه ، وفي نشأته وتطوره ، وفي نهايته وخاتمته ، وفي مصيره ومآله ، وفي ذاته وما يحيط به .

ومن هذا السمو لأهداف التربية النبوية تظهر سوءات التربية الأخرى ، القديمة والحديثة ، وتكشف عيوبها ، وتعرف نواقصها ، وتفضح نظراتها الضيقة في المدينة أو الوطن ، أو في ناحية العقل ، أو العواطف والغرائز ، أو

---

(١) شرح تنقيح الفصول ص ٤٢٧ ، وانظر : كتابنا أصول الفقه الإسلامي ص ٧٧ .

الدين المحض أو المادية المفرطة .

وإن سمو الأهداف في التربية النبوية اقترن بصفة مهمة أخرى ، وهي وضوح الأهداف التي رسمها المنهج الإلهي ، ودعا إليها الرسول المعلم ، ولذلك يمكن حصر هذه الأهداف بأمرين اثنين :

أ ـ غرس العقيدة الصحيحة ، وتصفيتها مما علق بها من شوائب أو انحراف أو أخطاء شائعة ، وهذه العقيدة التي تتعلق بالخلق أولاً ، ثم بالكون والحياة والإنسان ، والتي عبر عنها الرسول ﷺ بقوله في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره »[1] .

ب ـ تقويم السلوك في صلة الإنسان مع ربه بالعبادات ، وفي صلة الإنسان مع أخيه الإنسان في جانب القيم بالأخلاق الفاضلة ، وفي علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان في التعامل في شؤون المادة والحياة بالمعاملات .

---

(١) هذا جزء من حديث طويل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعاً ، انظر : صحيح مسلم بشرح النووي ١/ ١٥٧ .

وكانت هذه الأهداف واضحة وضوح الشمس في التربية النبوية ، وكانت هذه المعاني التي يحملها النَّبي ﷺ جلية في نفسه وقلبه منذ أول البعثة إلى آخر يوم في حياته الشريفة ، وإنما بدأ بالتدرج فيها ، وأعلن المبدأ الأول من أول يوم ، وأنه ينحصر بشهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وغرس هذا المبدأ في قلوب الصحابة ، وأعلنه على الملأ في مكة وجميع أندية قريش ، وثبت عليه طوال العهد المكي ، لا يتزحزح عنه ، ولا يساوم عليه ، ولا يقبل المفاوضة فيه ، مهما اعترضته المحن والمصاعب ، أو أحاطت به الخطوب والأهوال .

ونكتفي بالتدليل على ذلك أن نذكر بعض ما جاء في السيرة النبوية عندما جاء عتبة بن ربيعة وكان سيد قومه ، وجلس إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا بن أخي ، إنَّك منَّا حيث قد علمت من السِّطة (أي المنزلة الرفيعة) في العشيرة ، والمكان والنسب ، وإنك قد أتَيْتَ قومكَ بأمر عظيم ، فرَّقت به جماعتهم ، وسفَّهت أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفَّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل بعضها ، فقال رسول الله ﷺ :

« قل يا أبا الوليد أسمع » ، فقال : يا بن أخي ، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به ملكاً ملَّكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا (وهو التابع من الجن) تراه ، ولا تستطيع ردَّه عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربَّما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى منه ، حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله ﷺ يستمع منه ، نظر إليه بشفقة ورحمة ، وقرأ عليه القرآن حتى استحوذ على قلبه ، وقال عليه الصلاة والسلام : « ما جئتُ بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكنَّ الله تعالى بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل عليَّ كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحتُ لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به ، فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردُّوه عليَّ أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم » ، ورجع عتبة بغير الوجه الذي جاء به ، وقال لقومه : إنِّي سمعت قولاً ، والله ما سمعتُ مثلَه قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني ، واجعلوها بي ، وخَلُّوا بين هذا

الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم[1] .

وفي حادثة أخرى ، مشى أشراف قريش إلى أبي طالب عم النَّبي ﷺ ، الذي حدب عليه وقام دونه فلم يُسلمه لهم ، فقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفَّه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلي بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه فنكفيك ، فقال أبو طالب قولاً رقيقاً ، وردَّهم ردًّا جميلاً ، فانصرفوا عنه ، ثم ضاقوا ذرعاً بدعوة النَّبي ﷺ فعادوا إلى أبي طالب ، وقالوا له : يا أبا طالب ، إنَّ لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك ، فلم تنهه عنا ، وإنا والله ، لا نصبر على هذا . . . حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ، ثم انصرفوا عنه ، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله ﷺ لهم ، ولا خذلانه ، فبعث إلى رسول الله ﷺ فقال له : يا بن أخي ، إن قومك قد جاؤوني ،

---

(١) انظر : سيرة ابن هشام ١/٣١٣ ، ٣١٦ ، فقه السيرة : البوطي ، ص ٧٨ ، صور من حياة الرسول : دويدار ص ١٧١ .

فقالوا لي كذا وكذا ، فابق علي وعلى نفسك ، ولا تحمِّلني من الأمر ما لا أطيق ، فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء ، وأنه خاذله ومسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال رسول الله ﷺ : « يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمرَ في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله أو أهلِكَ فيه ، ما تركته » ، ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى ، ثم قام ، فلما ولّى ، ناداه أبو طالب فقال : اذهب يا بن أخي ، فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً ، وأنشد :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أُوَسَّد في التراب دفينا[1]

ومازال الوضوح في أهداف التربية النبوية طوال البعثة ، وكان هذا الوضوح أحد أسرار البساطة التي امتازت بها التربية النبوية ، والشريعة الإسلامية ، وكان عليه الصلاة والسلام يقول : « يا معشر قريش ، قولوا لا إله إلا الله تملكوا بها العرب والعجم »[2] . ، وكان شعار التوحيد يسري في دماء

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ١/ ٢٧٦ ، فقه السيرة ، الغزالي ص ١١٥ .
(٢) (طبقات ابن سعد ١/ ٢١٦) .

الصحابة ، ويغذي جسمهم وعقلهم وروحهم في جميع مجالات الحياة ، ولما جاء التشريع في العبادة والأخلاق والمعاملات ، وجد القابلية الكاملة في النفوس ، ولقي القبول السريع ، والتطبيق الدقيق ، والالتزام العملي في الحياة .

كما اقترن بسمو الأهداف ووضوحها في التربية النبوية الصراحة في الأسلوب ، فكان رسول الله ﷺ يعلن العقيدة ، ويبيِّن العبادة ، ويطلب الأحكام الشرعية ، بمنتهى الصراحة التي لا يَشُوبها مواربة ، ولا لف ولا دوران ، ولا غموض ولا إبهام ، وقال عليه الصلاة والسلام : « أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال : لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه ، وحسابه على الله »[1] .

وكان عليه الصلاة والسلام يربي الأمة بالصراحة ، ويعلن الأحكام بصراحة ، ويواجه الصعاب بصراحة ، ويحل المشكلات بصراحة ، ويجد حل المعضلات بصراحة ،

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً (صحيح مسلم بشرح النووي ١/٢٠٦) .

وسواء كانت مع أصحابه ، أو أهل بيته ، أو بين أزواجه ، أو مع خصومه وأعدائه ، ويصل في ذلك إلى نتائج تربوية فريدة في صفاء النفوس ، وسلامة الحلول ، وحسن النتائج .

وإن التربية النبوية جاءت بنصوص واضحة صريحة ، كما وصلت إلينا والحمد لله بشكل صحيح واضح ، ولا تحتاج إلى الاستنباط أو الاجتهاد ، أو الاعتماد على الإشارة ، ولكن الفارق الوحيد بينها وبين التربية الحديثة عدم استخدام المصطلحات التربوية المعاصرة ، وعدم جمعها في باب تربوي ، لأنها مبثوثة في كتب الحديث والسيرة ، ومنهجها موجود في القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو أصح كتاب على وجه البسيطة ، وهذا الاختلاف في الاصطلاح لا يعيب التربية النبوية ، ولا ينقص من قيمتها ، وقديماً قال العقلاء : « لا مشاحة في الاصطلاح ، والعبرة في الأمور بالمعاني لا بالألفاظ والمباني » .

وقد يكون العذر في عدم جمعها في باب تربوي أن القرآن كلَّه ، والسنة بكاملها ، تتضمن هذا المنهج التربوي للنبي ﷺ ، وللإسلام والمسلمين ، وكل ما يحتاجه هو التأمل

فيه ، والتدبر في معانيه ، والاستفادة منه ، ووضعه موضع التنفيذ ، والنظر إليه بمنظار العقل أولاً ، والعقيدة والشرع ثانياً ، دون أن نضعه تحت المجهر الأجنبي المعادي ، ولا ننظر إليه من وراء النظارات المستوردة ، والعيون الحاقدة ، والسدود الاستعمارية ، ومن خلال الغزو الفكري ، والنظريات الدخيلة التي لم تعرف الإخلاص لهذا الوطن ، ولا تحمل المودة لهذه الأمة ، ولا يتوقع منها النصح والإرشاد لهذا الدين ، ولا تتسم بالموضوعية والنزاهة في معالجة قضايانا وتراثنا وثقافتنا وتاريخنا .

٥ـ التطبيق العملي في التربية النبوية :

إنَّ الناظر في النظريات التربوية في العالم القديم والحديث يراها تعتمد على مبادىء مجردة ، وفلسفات محضة ، ينادي بها أصحابها ، ويدعو إليها العقلاء والمفكرون والمصلحون وعلماء التربية ، وقد يسعى هؤلاء أحياناً إلى نقل هذه النظريات إلى الحياة والتطبيق ، وقد يحاولون نقلها إلى التجربة ، وكثيراً ما يضعون الخطط والمناهج ، ويطلبون من غيرهم أن يقوموا بتطبيقها ، ويهيبون بالمسؤولين أن يعملوا

لتنفيذها ، وكثيراً ما تصطدم هذه النظريات بالواقع ، ويظهر عجزها عن الحياة ، أو صعوبتها في التطبيق ، أو استحالتها في التنفيذ ، فتبقى حبراً على ورق ، وفلسفة كلامية .

وقد يظهر عند تطبيق هذه النظريات مشاكل جديدة ، وصعوبات جمة ، لم تخطر على بال صاحب النظرية ، ولم يضع لها حلاً ، لذلك يقوم أتباعه أو من تبنَّى أقواله ، بمحاولة التعديل في الصياغة ، والتحوير في النظرية ، والتهذيب في المبادىء ، والتوضيح للأفكار ، والشرح على المتون ، والبحث عن الروح والباعث وما كان يخطر في ذهن المربي ، وقد يحافظ الأتباع على الأصل ، ويكون التعديل طفيفاً أو تكميلاً ، وقد يكون التعديل جذرياً ، وينسف النظرية من أساسها ، ولا يبقى منها إلا الاسم كشعار لها ، احتراماً لصاحبها ، ورمزاً يجمع الأتباع والأنصار ، وقد يخرج أحدهم أو غيرهم عن الطَّوْق ، فيلغي النظرية الأصلية ويقترح البديل ، وتاريخ التربية أكبر شاهد على ذلك ، ونتيجة لهذا التطور في التاريخ البشري نرى الدول تغير المناهج ، وتبدل الطرق التربوية ، وتعدِّل الوسائل ، وتنسف الأجهزة التربوية القديمة ، وتضع البديل ، ثم تدفعه إلى حيز التطبيق

والتنفيذ ، وتعود النتائج بالعيوب والمساوىء ، وتبحث عن الإصلاح والبديل ، وهكذا دَوَالَيْك .

أما التربية النبوية فكانت على العكس من ذلك تماماً ، فكانت تنطلق من الواقع والحياة ، وكان التطبيق العملي أحد المقومات الأساسية ، والمصادر الرئيسية لصياغة التربية النبوية ، وكان التطبيق مقترناً مع الفكرة ، والقول مرافقاً للعمل ، وكأن التربية النبوية تخطت مرحلة وجود النظرية أصلاً ، وتجاوزتها مباشرة إلى التطبيق والتنفيذ ، والسرُّ في أنَّ مصدرها رباني إلهي ، كما سبق ، فأعفت الإنسان أصلاً من البحث عن النظرية ، ثم وفَّرت عليه مرحلة التجربة ، لمعرفة الناجح ، ونبذ الفاسد ، أو اصطفاء الصحيح ، وترك الباطل ، ونزَّهت البشرية أو الإنسانية ، أن تكون حقل تجارب ، فيضيع جيل بأكمله ، أو أجيال ، فداء تطبيق نظرية ، أو بث الحياة في فلسفة محضة ، ومن هنا تفرَّدت التربية النبوية بصفة التطبيق العملي ، وكانت مبادئها وقيمها وأحكامها تنزل مباشرة من السماء ، وتصدر قولاً من الرسول المعلم ، لتأخذ طريقها مباشرة ـ وبدون تردُّد أو توقف ـ إلى التطبيق والتنفيذ ، وإلى الأداء والعمل .

وتتجلّى هذه الميزة في التربية النبوية بعدة أمور ، منها : تطبيق الرسول ﷺ لذلك على نفسه أولاً ، وأنه قدوة وأسوة لأمته وأصحابه ثانياً ، وأن المنهج الرباني يقوم على ربط الإيمان بالعمل ثالثاً ، ويقترن القول بالفعل رابعاً .

أ ـ البدء بالنفس :

تمتاز السيرة النبوية عامة ، والتربية النبوية خاصة أنها تقوم على مبدأ ديني أساسي ، وقاعدة تعليمية حكيمة ، ومنهج تربوي مقرر ، وهو تطبيق الأحكام الشرعية والعبادات والأخلاق والقيم أولاً ، ومباشرة من رسول الله ﷺ ، فالوحي الإلهي ـ المتلو وغير المتلو ـ كان ينزل مباشرة على رسول الله ﷺ ، وهو أول المخاطبين بخطاب الله تعالى ، وهو أول المكلّفين بتطبيق الشرع وتنفيذه ، وكان عليه الصلاة والسلام ـ فوق ذلك ـ مكلفاً ببعض الأحكام الخاصة ، والتكاليف الإضافية ، والأعباء الزائدة على بقية أمته ، خلافاً لما نراه من أصحاب السلطة والنفوذ ، ومن يتولى قيادة الناس ، وريادة الأفراد من محاولة إعفاء نفسه من بعض الواجبات والتكاليف ، والتهرب من تطبيق بعض ما يدعو

إليه ، ليحظى بالامتيازات الخاصة ، والإعفاءات العديدة ، فكان رسول الله ﷺ يبدأ بتطبيق المنهج الإلهي والأحكام الشرعية على نفسه ، ثم يأمر بها أصحابه ويدعو الناس إليها ، وكان عليه الصلاة والسلام في كثير من الأحيان يبدأ بتطبيق الحكم الشرعي الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ليكون فعله أصلاً هو المصدر للتشريع ، والباعث للدعوة ، والمحرك للاقتداء ، دون أن يقرنَه بالكلام ، لذلك قرر علماء الشريعة بالإجماع أن أفعال الرسول ﷺ مصدر للتشريع وأخذ الأحكام .

وكان رسول الله ﷺ يطبق الشرع تطبيقاً كاملاً ودقيقاً ، بحيث لا مجال للزيادة عليه ، وكان يأخذ نفسه ـ أحياناً ـ بأكثر مما يأخذ به غيره ، فدعا مثلاً إلى قيام الليل ، وكان يقوم الليل كله إلا قليلاً ، ويدعو للطاعة والنوافل ، وكان أكثر المسلمين تنفلاً ، ويصلي حتى تتورم قدماه الشريفتان ، ويبين فضل صوم التطوع ، ويصوم حتى يقال لا يفطر ، ويحرض على الجهاد ، ويتولى بنفسه قيادة الجيش في الغزوات ، ويأمر بالثبات في الحرب والقتال ، ثم يلتزم به ، كما جاء في عدة غزوات كأحد وحنين عندما هزم أكثر الجيش ، وبقي عليه

الصلاة والسلام ثابتاً ثبوت الجبال ، ينادي أصحابه بالعودة ، ويتحدى الكفار قائلاً : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب . كما يقف في مقدمة المقاتلين ، وفي أول الصفوف ، وهو ما حدثنا به أحد أبطال المسلمين ، وأعظم الشجعان بينهم ، وهو علي كرم الله وجهه ، فيقول : « كنَّا إذا حمي الوَطيس اتقينا برسول الله ﷺ » ، وإذا دعا عليه الصلاة والسلام إلى الأخلاق الفاضلة كان في قمة السلوك الأخلاقي ، والتعامل السامي مع أهله وجيرانه وأصحابه وجميع الناس ، ويصبر على الإيذاء ، ويحسن إلى الضعفاء ، ويبرُّ الأرحام ، ويكرم الضيف ، ويسامح المسيء . .

وهكذا كان الرسول المربي مع أصحابه ، وبين قومه ، في جميع مجالات الحياة ، ويطبق التربية المستمرة والدائمة ، مما ينفرد به على جميع المعلمين والمربين في العالم ، ويسمو على جميع المفكرين والدعاة وأصحاب المبادىء والنظريات .

وكان لهذه التربية العملية ، والتطبيق الفعلي في جميع مجالات الحياة ، وتحت نظر المسلمين جميعاً ، وعلى مرأى منهم : في البيت والطريق ، وفي المسجد والمجتمع ، وفي

العمل والمعاملات ، وفي الجهاد والقتال ، وفي الحرب والسلم ، كان لذلك أثر بالغ وتأثير عميق ، أحاط بالنفوس من جميع جوانبها ، فكان الشغل الشاغل للقلوب ، والمحور الجذاب للالتفاف حوله .

وإن هذه الميزة العظيمة في التربية النبوية ، وهي البدء بالنفس ، هي المبدأ التربوي والتعليمي المتفق عليه بين علماء التربية ، تحقيقاً لقول الشاعر العربي :

ابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها فإذا انتهيت إذن فأنت حكيم

وهو ما يقرره القرآن العظيم في قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

[البقرة : ٤٤] .

ب ـ القدوة والأسوة :

ويتصل بالمبدأ السابق في البدء بالنفس قاعدة تربوية أصيلة ، وحكم شرعي ثابت ، وهو أن الرسول المربي ﷺ يلتزم بالتطبيق العملي للتربية والشرع باعتباره قدوة لغيره في جميع أعماله ، وأسوة للمسلمين في كل زمان ومكان ، وقوفاً عند قول الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ

لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب : ٢١] .

ذلك أن التربية في أساسها توجيه علمي ، وتلقين نظري ، تهدف إلى تهذيب السُّلوك ، ومن هنا كانت التربية عن طريق القدوة ذات أثر فعّال ، كيلا تقتصر التربية على النواحي النظرية أولاً ، ولتتجنب مخاطر الطريق أثناء ترجمتها إلى السلوك والعمل والتطبيق ثانياً .

وكان رسول الله ﷺ يربي الأمة عن طريق القدوة ، ويعتبر نفسه أول الناس ، وأولى الناس ، بتنفيذ ما يدعو إليه ، وتطبيق ما جاء به ليحقق أمرين معاً :

ـ **الأول** : لتربية الصحابة عن طريق الاقتداء به ، والتأسي بأعماله ، والسير على منواله ، ومحاكاة أفعاله ، ومشاركته عملياً بإقامة شرع الله ودينه في الأرض ، دون الاقتصار على مجرد المشاركة الوجدانية والروحية .

ـ **والأمر الثاني** : ليكون عمله ﷺ وسلوكه الصورة المثالية ، والنموذج الصحيح الدقيق للمبادىء النظرية ، والأحكام الدينية التي يدعو إليها ، فيقطع الطريق أمام الانحراف في السلوك ، والخطأ في الفهم والتأويل ، والاختلاف في التطبيق والتنفيذ .

جـ ـ اقتران القول بالعمل :

ونتيجة للقاعدتين السابقتين في البدء بالنفس ، والتربية بالقدوة ، كان رسول الله ﷺ يترجم الأقوال إلى أفعال ، والكلام إلى عمل ، والمبادىء إلى سلوك ، والوصايا إلى امتثال ، وكانت حياته ﷺ ترجمة عملية للقرآن الكريم ، وتجسيداً كاملاً للإسلام ، وهذا ما عبَّرت عنه السيدة عائشة رضي الله عنها عندما سُئلت عن خُلُق رسول الله ﷺ ، فقالت : « كان خُلُقه القرآن »[1] .

ويقاس على ذلك بقية أحكام القرآن والإسلام ، في مختلف جوانب الحياة والسلوك ، فكانت عقيدة القرآن والإسلام ، وكانت عباداته عبادة القرآن والإسلام ، وكانت معاملاته بمقتضى أوامر القرآن وأحكامه ، وكانت آدابه ووصاياه متفقة مع ما جاء في القرآن والإسلام .

وكانت سيرته الشريفة صورة مثالية للحياة الإنسانية في

---

(١) رواه مسلم وأصحاب السنن وأحمد والدارمي (انظر : صحيح مسلم بشرح النووي ٦/ ٢٦ ، مسند أحمد ٦/ ٥٤) .

جوانبها الخاصة والعامة ، العقلية والروحية ، والعاطفية والأخلاقية ، المالية والاجتماعية ، ليكون عليه الصلاة والسلام قدوة مثالية للمسلمين في جميع جزئيات حياتهم ، ويكون عليه الصلاة والسلام المثل الكامل والأسوة الحسنة في جميع المجالات ، فهو المعلم الناجح ، والمربي الرشيد ، والموجِّه الحكيم ، وهو الزوج المثالي في بيته وفي معاملته لزوجاته وأهله ، وهو القريب الرحيم لذوي قرباه ، والأب العطوف لأولاده ، والصديق الوفي لأحبابه ، والجار النبيل لمن حوله ، والأخ الوفي ، والصديق المحب ، كما أنه الصورة الصحيحة لرجل العقيدة ، وصاحب الرسالة ، والداعية المخلص إلى الله تعالى بصبر وتضحية ، وهو الشاب المستقيم في حيويته ، والقائد المنتصر ، والمحارب الشجاع ، والسياسي الناجح ، والمعاهد الصادق ، والمفاوض الحكيم ، ورئيس الدولة الفريد من نوعه ، بين أصحابه وأمام أعدائه .

وباختصار فقد تجسدت الرسالة الإسلامية في شخصية الرسول ، ليكون فاعلاً في التربية ، ونموذجاً صالحاً للإنسان المسلم ، ولايزال هذا الأثر الفعال في السيرة عاملاً عظيماً في

تربية الأجيال المسلمة ، واستقصاء الإلهام منها في كل زمان ومكان .

د ـ ربط الإيمان بالعمل :

إن المبادىء الثلاثة السابقة في التطبيق العملي للتربية النبوية تنطلق من أساس عقائدي ، وقاعدة إسلامية ، وهي ربط الإيمان بالعمل .

ذلك أن التربية تتجه إلى تهذيب اللسان بالقول ، وتصحيح السلوك بالفعل ، وتحريك طاقات الإنسان إلى الإنتاج والعمل ، وتهدف في النتيجة إلى حسن التصرف عملياً .

والإنسان في الواقع يتحرك من داخله ، وما تمليه عليه أفكاره وآراؤه ومعتقداته ، وينفذ ما يقتنع به ، ويسعى إلى تطبيق ما يعتقده .

لذلك اهتم الإسلام والقرآن عامة ، والتربية النبوية خاصة بالإيمان والعقيدة ، وجعلوهما بالمكان الأول والأعلى ، وبقي الرسول ﷺ طوال العهد المكي يبني العقيدة ، ويغرس الإيمان ، ثم ربط الإيمان بالعمل ، وقرن بينهما برباط محكم ، لا يقبل الفصل ، ولا الانفصام ، وجاء ذلك في

آيات كثيرة ، وأحاديث عديدة ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ [الكهف : ١٠٧] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٠ـ٣٢] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف : ١٣ـ١٤] ، وروى الإمام مسلم عن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال : قلتُ : يارسول الله ، قل لي في الإسلام قولاً ، لا أسأل عنه أحداً غيرك ، قال : « قل : آمنت بالله ، ثم استقم » ، وفي رواية الترمذي : قلت : يارسول الله ، حدثني بأمر أعتصم به ، قال : « قل ربِّي اللهُ ، ثم استقم » ، قلتُ يا رسول الله : ما أخوفُ ما تخافُ عليَّ ؟ فأخذ بلسان نفسه ، ثم قال : « هذا »[1] . وهذه الزيادة في رواية الترمذي تشير

---

(١) انظر : نزهة المتقين شرح رياض الصالحين ١/١١٨ ، ١١٩ .

إلى التحذير من فصل القول عن العمل ، وإطلاق اللسان بما لا يعمل به الإنسان ، وأن الفصل بين الإيمان والعمل يعتبر شذوذاً وانحرافاً .

والإسلام اعتبر الإيمان أساساً متيناً لبناء الإنسان الكامل ، وتربية المسلم القويم ، ولكن العمل هو المعيار الذي يبرهن على صحة الإيمان ، وصدق العقيدة ، وأن العمل تحقيق عملي لمعنى العقيدة في حياة الإنسان ، وبرهان على صدق الإيمان الداخلي ، ورسوخه في النفس ، واستقراره في القلب ، كما أن العمل الصالح مدد للإيمان ، وتغذية له ، وتنمية لجذوره ، لأن الإيمان يزيد وينقص في مذهب الجمهور ، لقوله تعالى : ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا ﴾ [المدثر : ٣١] ، وقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا ﴾ [الفتح : ٤] ، فالإيمان يزداد قوة وثباتاً بالطاعة والعبادة ، وينقص ويتضاءل ويخبو نوره بالمعصية والمخالفة ، وتأتي عبادة الله وطاعته ، لتنفذ إلى قلب المؤمن بأشعة النور والهدى ، فيرى الخير خيراً فيفعله لنفسه ولغيره ، ويرى الشر شراً فيبتعد عنه ويحذِّر غيره منه ، وكما أن العمل بغير إيمان لا ينفع ، فالإيمان بلا عمل لا يجدي أمام الله

تعالى ، ويحاسب الإنسان على ترك العبادة ، وسوء الأخلاق ، وانحراف السلوك في الدنيا والآخرة .

وكان المفكر الروسي تولستوي يصرح : « بأنه من السهولة بمكان أن يضع آلاف النظريات ، ولكن من الصعوبة أن يحول نظرية واحدة إلى تطبيق »[1] .

أما رسول الله ﷺ فكان يعتمد في التربية النبوية على تحويل كل قول إلى عمل ، وكل نظرية إلى تطبيق ، وكل مبدأ إلى واقع حي ، وكل خلق إلى سلوك ، ويبث الحياة في الأحكام حتى تسير في الطريق ، وأمام العيان ، متخطّياً مرحلة التجربة التي تحتمل الصواب والخطأ ، أو النجاح والفشل ، لكونه معصوماً من جهة ، وأنه رسول رب العالمين يحمل المنهج الإلهي الذي نزل به القرآن ، ويتلقى التوجيهات الإلهية في العمل ، ويتمتع بالرعاية الإلهية في التربية والدعوة من جهة أخرى ، ونجح عليه الصلاة والسلام في صياغة ذلك كله في حياة الصحابة الذين جمعوا بين الإيمان والعمل ، وقرنوا القول بالفعل ، وربطوا بين الإيمان والسلوك ، والنظرية والتطبيق .

---

(١) انظر : معجزة الإسلام التربوية ص ٣١ .

والدليل الصريح على ما نقول هو ما سطَّره لنا الصحابة في وصف منهج التربية النبوية فقد أخرج الإمام أحمد عن أبي عبد الرحمن السُّلَمي قال : حدثنا من كان يُقرئنا من أصحاب النَّبي ﷺ ، أنهم كان يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات فلا يأخذون في العُشْر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل ، قالوا : فعلَّمنا العلم والعمل[1] .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الرحمن السُّلَمي نحوه ، وأخرجه ابن سعد عن أبي عبد الرحمن وزاد : « فكنّا نتعلَّم القرآن والعمل به » .

وأخرج ابن عساكر عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا إذا تعلَّمنا من النَّبي ﷺ عشر آيات من القرآن لم نتعلم التي بعدها حتى نعلم ما فيها ، فقيل لشريك : من العمل ؟ قال : نعم[2] .

ولذلك يعتقد المسلم برسول الله ﷺ أنه كان أسوة وقدوة ، ومعلماً ومربياً ، ويقدم حبَّه على نفسه وماله وولده

---

(١) مسند أحمد ٥/ ٤١٠ .

(٢) انظر : حياة الصحابة ٢/ ٩٨ .

وأهله ، ويتقرب إلى الله بطاعته وتنفيذ سنته ، والالتزام بهديه ، والسير على نهجه ، ويعلن بأن محمداً ﷺ المربي الأول ، والمعلم المثالي ، والموجه النموذجي في الحياة ، وأن صحابته أفضل جيل عرفه التاريخ عقيدة وسلوكاً ، وإيماناً وعملاً ، قولاً وفعلاً ، دعاة وحكاماً .

٦ـ الروح الأخلاقية في التربية النبوية :

الأخلاق جمع خلق ، وهو صفة مستقرة في النفس ـ فطرية أو مكتسبة ـ ذات آثار في السلوك محمودة أو مذمومة[١] .

والأخلاق ذات أثر بليغ في التربية ، ولها صلة كبيرة في سلوك الإنسان وتصرفاته ، وتتصل مع فكره وثقافته ، وأهدافه وغاياته في الحياة ، ولذلك كانت محل اهتمام كبير عند علماء التربية .

وإن اهتمام التربية بالأخلاق تشترك فيه التربية النبوية مع غيرها ، ولكن في كثير من الأحيان تكون التربية الأخلاقية هي

---

(١) الأخلاق السامية وأسسها ١/ ٧ .

الهدف الوحيد ، والغاية المقصودة للنظريات التربوية في القديم والحديث ، وتغفل معظم هذه النظريات التربوية عن الجوانب الأخرى في الإنسان والحياة ، وقد تلغي بعض النظريات التربوية قواعد الأخلاق من مناهجها ، بينما تمتاز التربية النبوية بأنها تعتمد على الأخلاق باعتبارها أحد الأركان الأساسية في التربية التي تقوم على الشمول ، كما سبق ، وتعتبر الأخلاق أحد الدعائم الأربعة في الشريعة مع العقيدة والعبادة والتشريع .

لذلك قال رسول الله ﷺ فيما رواه مالك وأحمد والحاكم والبيهقي : « بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صالح الأخلاق » ، ويصفه أحد الصحابة ـ فيما رواه البخاري ـ لقوله : « رأيتُه يأمرُ بمكارم الأخلاق »[1] .

وربط رسول الله ﷺ الأخلاق بالإيمان ، فقال عليه الصلاة والسلام ـ فيما رواه أبو داود وأحمد ـ : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً »[2] ، ورغَّب رسول الله ﷺ بالأخلاق

---

(١) انظر : صحيح البخاري ٤/ ٣٩ ، الموطأ ص ٥٦٤ ، مسند أحمد ٢/ ٣٨١ ، الفتح الكبير ٢/ ٨ .

(٢) رواه الترمذي وابن حبان عن أبي هريرة ، والطبراني في الأوسط عن أبي سعيد (الفتح الكبير ١/ ٢٢٨) .

الفاضلة ، وأنها من أحسن الصفات ، وأقرب الأعمال إلى مرضاة الله تعالى ، فقال فيما رواه البخاري والترمذي وأحمد : « إنَّ من أحبّكم إليَّ وأقربكُم مني مَجْلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً »[1] ، وعدَّ رسول الله ﷺ الأخلاق الحسنة من أثقل الأعمال في ميزان العبد يوم القيامة ، فقال عليه الصلاة والسلام ـ فيما رواه أحمد وأبو داود عن أبي الدرداء مرفوعاً ـ : « ما مِنْ شيءٍ في الميزان أثقلُ من حُسن الخُلق »[2] .

ولا نريد الإسهاب في الكلام عن أهمية الأخلاق العامة ، وحرص التربية النبوية عليها خاصة ، لأن ذلك يستوعب المجلدات ، ويكفي أن نشير إلى أن الأخلاق الفاضلة التي دعا إليها الإسلام ، وطبقتها التربية النبوية ترتبط بمعظم أحكام الشريعة في العقيدة والعبادة والتشريع ، وتعتبر الأخلاق الرديف المباشر بعد العقيدة لحماية الإنسان وحسن التطبيق والإلتزام بالأحكام ، وهي الجناح المساعد للعقيدة في إقامة

---

(١) انظر : صحيح البخاري ٤/ ٣٩ ، الفتح الكبير ١/ ٤١٥ .
(٢) انظر : الفتح الكبير ٣/ ١١١ .

المجتمع وصلاحه ، وتوفر العناصر لتقدُّمه وتطوُّره ، وعليها تقوم الحضارات ، ويبنى الوطن ، وتحافظ الأمم على وجودها ، وهذا ما قصده شوقي بقوله :

وإنَّما الأممُ الأخلاقُ ما بقيت فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ومن هذا المنطلق كانت التربية النبوية تجمع بين الواقعية والمثالية ، واقعية الإنسان في تكوينه وفطرته ونشأته وتطوره ، وواقعه في الحياة والكون ، ومثاليته التي يرنو إليها ويسعى وراءها ، وخُلِق من أجلها ، وتجمع التربية النبوية بين العَدْل والإحسان ، العدل المطلق ، والعدالة الكاملة التي طبقها الرسول ﷺ على نفسه وأهله وأقربائه ومجتمعه ، « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعَ محمدٌ يدَها »[1] ، وبين الإحسان الذي تجمَّل به الرسول ﷺ وطبَّقه على نفسه ، ودعا الناس إليه ، ثم قرنه بالرفق واللين ، والعطف والحنو على أصحابه وأمته ، والتيسير والتخفيف والرحمة الواسعة التي أُرسل بها ، وشهد الله له بها ، فقال

---

(١) هذا جزء من حديث رواه البخاري ومسلم وأحمد وأصحاب السنن عن عائشة مرفوعاً (الفتح الكبير ١/ ٤٣٧) .

تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، وخصَّه بصفتين من صفات الرحمن بقوله : ﴿ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

وتظهر أهمية هذه الروح الأخلاقية التي بثَّها الرسول ﷺ في التربية النبوية في كل زمان وعصر ، وخاصة في وقتنا الحاضر ، وأن أمتنا اليوم ـ قبل غيرها ـ تمرُّ بأزمة أخلاقية مستعصية ، تكاد أن تشل جميع أنشطة الحياة ، وتسد الطريق أمام المبادىء التربوية كاملة ، وتهدم كل ما يبنيه الإنسان ، فكرياً وتربوياً ، نفسياً وعقلياً ، مادياً وحضارياً ، وأن أسمى الوسائل التقنية والفنية التي وصل إليها إنسان اليوم تصبح وبالاً على الناس إذا فسدت الأخلاق ، واضمحلت القيم الخلقية في المجتمع ، وأن مشكلتنا اليوم مشكلة أخلاقية ، وليست فكرية أو علمية أو صناعية ، فآلات الحضارة والصناعة يمكن استيرادها والاعتماد على الدول الأخرى فيها ، والعلم مشترك بين الأمم ، ويمكن نقله بسهولة في وقت قصير ، أما الأخلاق فهي خاصة بالأمة ، ويصعب استيرادها ، كما تحتاج إلى وقت كبير ، وجهد طويل لبنائها وغرسها في المجتمع .

الخاتمة

هذه أهم خصائص التربية النبوية التي تفرَّدت بها على غيرها ، وامتازت بها على بقية النظريات التربوية ، وهذه الخصائص التي تميزت بها التربية النبوية حققت النتائج التربوية العظيمة ، وتربَّى الصحابة على هذه الأسس ، فصاروا أفضل جيل عرفه التاريخ ، وسار الصحابة والتابعون في تربية الأجيال اللاحقة على منهج التربية النبوية الذي جعلوه نبراساً لهم في الحياة ، وصار منهجاً تربوياً واضحاً وعاماً وشاملاً على الصعيد الفردي والشخصي والرسمي ، والعام والخاص في البيت والأسرة والمجتمع والمدارس والدولة ، وهو منهج الدعوة إلى الدين والإسلام ، ومنهج التربية والتعليم ، والثقافة والتهذيب ، والحضارة والحياة بأجمعها .

وكان الرسول المربي يحظى بالتوجيه الرباني في التربية ، والنور الإلهي في الدعوة ، ويتمتع بالاستعداد الذاتي في الاصطفاء ، والوسائل الخاصة في الثبات والصبر ، فحقق أعظم تجربة تعليمية وتربوية في تاريخ البشرية والشعوب ، واستطاع أن يغرس الدعوة في القلوب ، وأن يغير السلوك ،

ويقلب المجتمع ، ويفجر طاقات الأمة العربية أولاً ، ويوجه إمكاناتها الخيرة واستعدادها الطيب ، إلى حمل الدعوة ونشرها في العالم بنفس القوة والطاقة والوضوح الذي بلَّغه الرسول للعرب ، وبلغته هذه التربية إلى الأمم الأخرى ، وحققت نفس الأثر الذي وصله العرب ، ودخلت شعوب الأرض بدين الله ، ثم حملت هذه الشعوب الدعوة الإسلامية والتربية النبوية ، وكان تأثيرها في جميع البلاد ، كما كان تأثيرها في الجزيرة العربية ، وتغيَّرت المعتقدات ، وتهذبت الأخلاق ، وتوحَّدت الجهود وتفجَّرت الطاقات ، وتوجَّهت نحو العطاء ، وأكبر دليل على صحة ما نقول : ما أبدعه غير العرب من تراث زاخر ، وإنتاج وافر ، وأعمال مجيدة ، تضافرت مع إنتاج العرب ، وكوّنا الثقافة الإسلامية والحضارة الإنسانية ، والتراث الكبير الذي يملأ المعمورة ، وهذا ما يدعونا للرجوع إلى التربية النبوية في غاياتها ووسائلها ، لنترسَّم معالمها المحفوظة والسليمة ، ونقوم بالوظيفة التي تنقذنا ، وتشرفنا أمام الله والناس .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

المحتوى

مقدِّمة ٣
النبوة والتربية ٣
الرسول العربي المربي ٥
منهج الرسول في التربية ٦
الخصائص الأَساسيَّة للتربية النبوية ١١
١ ـ الاصطفاء والاختيار ١١
٢ ـ التوجيه القرآني للرسول في التربية ٢٠
الخصائص العامة للتربية النبوية ٢٩
١ ـ النزعة الإنسانية في التربية النبوية ٢٩
٢ ـ الشمول في التربية النبوية ٣٩
٣ ـ التوازن في التربية النبوية ٤٦
٤ ـ السمو في أهداف التربية النبوية ٥٨
٥ ـ التَّطبيق العملي في التربية النبوية ٧٠
أ ـ البدء بالنَّفس ٧٣

ب ـ القدوة والأُسوة ٧٦
ج ـ اقتران القول بالعمل ٧٨
د ـ ربط الإيمان بالعمل ٨٠
٦ ـ ربط الأَخلاقية في التربية النبوية ٨٥
الخاتمة ٩٠
المحتوى ٩٥

* * *